CC BY

College of Basic Education Research Journal

www.berj.mosuljournals.com

The balancing between Al-Sakkaki and his critics

Dr.Mohammed Hassan Mustafa
College of Basic Education/ University of Mosul

Article Information

Article history:
Received: November 5,2023
Reviewer: December 11,2023
Accepted: December 11,2023
Available online

Keywords:
Al-sakkaki, tributaries of rhetoric, the trial division, the meanings, Al-Bayan, Al-Badi'

Correspondence:

Abstract

There are two different readings of Al-Sakkaki's role and achievement in the history of Arabic rhetoric. The first is represented by the ancients' celebration of the third section of (Al-Miftah), and their adoption of it as the final formula of Arabic rhetoric. In the second reading, many contemporaries considered his work in complicating rhetoric, arranging its topics, and dividing it into its three sciences, as killing the spirit of literature, that reached its peak in Al-Jurjani's books: "Dala'il Al 'Ejaz" and "Asrar Al-Balagha," and they blamed him for the stagnation and dryness that afflicted rhetorical research in the centuries following the era of Al-Sakkaki. The research tried to balance Al-Sakkaki's eloquence, which has been proven over centuries, and continues to delineate its method for Arabic rhetoric , and controlled its movement, and among the severe criticisms directed at it, and attempted to undermine the foundations on which it was founded.

The research presented a new reading of the history of rhetoric with its multiple tributaries, the paths of each of them, the efforts made in it, and its impact on rhetorical research. It was seen - in light of this reading - that contemporaries reduced the history of rhetoric to one of its tributaries, which is rhetorical criticism, which was titled "Al-Badi'" and therefore they focused on taste and rejecting the traditionalism and standardization that eloquence led to at the hands of Al-Sakkaki.

ISSN: 1992 – 7452

الموازنة بين السكاكي ومنتقديه

محمد حسن مصطفى
كلية التربية الأساسية/ جامعة الموصل

ملخص البحث

ثمة قراءتان مختلفتان لدور السكاكي وإنجازه في تاريخ البلاغة العربية، تتمثل الأولى باحتفاء القدماء بالقسم الثالث من المفتاح، واعتماده بوصفه الصيغة النهائية للبلاغة العربية، وفي القراءة الثانية عدّ كثير من المعاصرين عمله في تقعيد البلاغة وترتيب مباحثها، وتقسيمها إلى علومها الثلاثة، قتلاً للروح الأدبية التي بلغت أوج ازدهارها في كتابي الجرجاني: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وحمّلوه وزر الجمود والجفاف اللذين أصابا البحث البلاغي في القرون التالية لعصر السكاكي، حاول البحث أن يوازن بين بلاغة السكاكي التي ثبتت طيلة قرون من الزمان، ولا زالت ترسم للبلاغة العربية منهجها، وتضبط حركتها، وبين الانتقادات الشديدة التي وجهت إليها، وحاولت تقويض الأسس التي قامت عليها.

وقدم البحث قراءة جديدة لتاريخ البلاغة بروافدها المتعددة، ومسار كل منها، والجهود التي قدمت فيها، وأثرها في البحث البلاغي، ورأى -في ضوء هذه القراءة- أن المعاصرين اختزلوا تاريخ البلاغة في أحد روافدها وهو النقد البلاغي الذي كان يحمل عنوان "البديع" ولذلك ركزوا على الذوق ورفض التقعيد والمعيارية التي انتهت إليها البلاغة على يد السكاكي.

الكلمات المفتاحية: السكاكي، روافد البلاغة، التقسيم الثلاثي، المعاني، البيان، البديع.

مقدمة في تاريخ البلاغة

كثير من قضايا البلاغة العربية تكمن في صفحات تطورها، وتعدد واختلاف دوافعها، وتنوع مصادرها وروافدها، فقد اتسمت في كل طور من أطوارها بسمات خاصة، ويركز هذا البحث على قضية مهمة هي تعدد القراءات التي عُنيت بتطور البحث البلاغي، لتعدد رؤى الدارسين، واختلاف وجهات نظرهم حول التراث البلاغي وأطواره، ولعل التساؤل المهم في هذا السياق: هل سار البحث البلاغي سيراً متدرجاً مطرداً نحو النضج والتكامل، فتتابعت مراحله بتسلسل صاعد، وإن كان يبطئ حيناً، ويحث الخطى أحياناً أخرى، بحسب العصور، واختلاف معطياتها لاختلاف المؤثرات الفكرية

والاجتماعية والسياسية وغيرها، نستطيع أن نتلمس معالم هذه القراءة عند القدماء، إذ انصب اهتمامهم في كل جيل على آخر منجزاتها، والسعي للارتقاء بها إلى مرحلة جديدة، وقد تم ذلك باستيعاب التجارب السابقة، فجاء اللاحق يحمل إضافة على السابق، نجد هذا في تناول القدماء لمؤلفات الجاحظ، وابن قتيبة، وابن المعتز، وكتب أهل الإعجاز، والنقد البلاغي عند القاضي الجرجاني، والآمدي، والعسكري، وابن رشيق، ويتجلى ذلك أكثر حين نصل إلى الشيخ عبدالقاهر، والسكاكي والقزويني، فقد رأوا أن الشيخ عبدالقاهر استوعب الأفكار والمعارف التي سبقته وعمقها وزاد عليها في كتابيه، فقد جمع في "أسرار البلاغة" كل ما كتب في النقد البلاغي أو البديع بمعناه الواسع الذي يضم الفنون التي يشيع استعمالها في الشعر خاصة والأدب عامة، والتي توزعت فيما بعد بين علمي البيان والبديع، ثم انصرف إلى ما انشغل به علماء الإعجاز من مباحث اللغة والنظم، فجمعها من أطرافها، ووسعها، وتتبع دقائقها في كتابه: "دلائل الإعجاز" فجمع بذلك البلاغة من قناتين من قنواتها، فحمد له أهل البلاغة صنيعه، وأثنوا على عظيم جهده، وانشغلوا بذلك قرناً ونصف القرن من الزمان، من غير أن يضيفوا إليها شيئاً يذكر، سوى تفسير الكشاف للإمام الزمخشري الذي يعدّ أول تفسير بياني اعتمد أدوات بلاغية في تحليل النص القرآني، وفي نهاية هذه الفترة ظهرت محاولتان لتحريك الركود الذي أصاب البلاغة في القرن السادس، الأولى للفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) وكانت تهدف إلى تلخيص كتابي الشيخ عبد القاهر بتجريدهما من الجانب التحليلي التطبيقي، واستخلاص ما فيهما من قواعد بلاغية، على وفق ما وضعه من ترتيب وتصنيف، وبعد ما يقرب من عقدين كانت المحاولة الثانية لتقعيد البلاغة العربية على يد السكاكي (ت٦٢٦هـ) وكانت هذه المحاولة أكثر توفيقاً، وأبعد أثراً من الأولى، وتجلى ذلك في الاهتمام الذي لاقته من معاصري السكاكي والأجيال التي تلته، ولعل السبب في نجاحها أنها جمعت كل روافد البلاغة، واختزلت تراثها، وجعلت منها علماً مستقلاً يرفد الإعجاز والأدب والنقد بأدوات البحث والدراسة والتحليل، أدرك البلاغيون ما فعله السكاكي ، وعرفوا له قدره، فظل القسم الثالث من المفتاح محور البحث البلاغي لأكثر من قرن، إلى أن جاء الخطيب القزويني فانتزع هذا القسم من المفتاح وأجال فيه نظره، وهذب لغته، ولخصه ثم فصل تلخيصه، وأضاف إليه إضافات مهمة لاقت قبولاً كبيراً من أهل عصره والعصور التي تلته، حتى صار التلخيص وشرحه الإيضاح الصورة النهائية للبلاغة العربية إلى اليوم، والقزويني الذي وصف المفتاح بأنه ((غير مصون عن

الحشو والتطويل والتعقيد))[١] يقر بأنه ((أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعاً، لكونه أحسنها ترتيباً، وأتمها تحريراً، وأكثرها للأصول جمعاً))[٢] فالقزويني يعلل ثناءه على المفتاح بتوافره على مزايا ثلاث هي: حسن الترتيب، والإحاطة، وجمع الأصول السابقة للبلاغة، وفي مقدمة الإيضاح ذكر منهجه في التأليف، بالعودة إلى المفتاح لإضافة ما لم يتسع له التلخيص، والعودة إلى كلام الإمام الجرجاني في الدلائل والأسرار ليأخذ منهما ما فات السكاكي في المفتاح، وما وجده في مصادر البلاغة الأخرى مما لم يتناوله الجرجاني ولا السكاكي، فضلاً عن إضافاته وأفكاره[٣] التي جعلت من الإيضاح تأليفاً مستقلاً، وحلقة تضاف إلى سلسلة تطور البحث البلاغي، فقد مخض القزويني تراث البلاغة لقرون من الزمان، واستخرج زبدتها، وهذبها ورتبها ((حتى استقر كل شيء منها في محله))[٤] احتفى معاصرو القزويني ومن بعدهم بعمله في التلخيص والإيضاح، ولعل بهاء الدين السبكي (ت٧٧٣هـ) في مقدمته الطويلة لشرحه على التلخيص يعطينا صورة عن هذه المرحلة، إذ يبدؤها بإبداء رأيه ورأي معاصريه في التلخيص بقوله: ((أما بعد، فإن تلخيص المفتاح في علم البلاغة وتوابعها، بإجماع من وقف عليه، واتفاق من صرف العناية إليه، أنفع كتاب في هذا العلم صُنف، وأجمع مختصر فيه –على مقدار حجمه– أُلف...))[٥] وهو في الوقت نفسه ينتقد شروح التلخيص قبله، ويصفها بالسطحية وعدم الجدوى، وهو وصف صحيح لحالة التأليف في هذه المرحلة، وما زالت البلاغة في الموضع الذي وضعها فيه السكاكي والقزويني، هذا الاستقرار الذي شهدته البلاغة على يد السكاكي والقزويني عدَّه القدماء نضجاً وتكاملاً، وكاد المعاصرون أن يجمعوا على وصفه بالركود والجمود، ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك فيصمه بالانتكاس والتقهقر عن المستوى الذي بلغته البلاغة على يد الإمام عبدالقاهر[٦]، الذي وضع نظريتي علم المعاني وعلم البيان في كتابيه: الدلائل والأسرار[٧] ويرى أصحاب هذا الرأي أن البلاغة بلغت قمة تطورها ونضجها وتكاملها في أثري الشيخ

١() التلخيص في علوم البلاغة– شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٣٢: ص٢٢

٢() نفسه.

٣() ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٤ : ٩

٤() نفسه

٥() عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣: ٢٠.

٦() ينظر: البلاغة العربية تاريخها. مصادرها. مناهجها، د. علي عشري زايد، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٢: ١٤٠

٧() ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥ط٦: ١٦٠ وعلم البيان،د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت١٩٧٤: ٢٢

عبد القاهر المذكورين، وهذا يعني اتفاق الفريقين على أن البلاغة بلغت مرحلة النضج والاستقرار، والاختلاف حول تحديد هذه المرحلة وتعيين المنجز الذي يتمثل فيه هذا النضج والاستقرار، ووراء هذا الاختلاف قراءتان مختلفتان لتاريخ تطور البلاغة، قراءة القدماء التي ترى أن البلاغة مضت في تطورها بشكل مطرد، إلى أن استقرت ونضجت على يد السكاكي والقزويني، وقراءة المعاصرين التي ترى أن البلاغة شهدت ازدهاراً في عصر الجرجاني ثم انتكست على يد السكاكي ومن سار على نهجه.

قراءة المعاصرين لتاريخ البلاغة

وتمثلت القراءة المعاصرة بعدد من المؤلفات في تاريخ البلاغة أولها كتاب "تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها" للشيخ أحمد مصطفى المراغي (ت١٩٥٢م) صدرت طبعته الأولى عام ١٩٥٠م قسم فيه تاريخ البلاغة إلى خمسة أطوار[٨]، الطور الثاني منها عصر عبد القاهر قال فيه أنه أنشأ علم البيان بوضعه الدلائل والأسرار، ((وما زيد بعده من المسائل فقشور لا يضير العالم تركها...))[٩] وقال عند التعريف برجال البلاغة أن سيبويه هو ((واضع علمي المعاني والبيان))[١٠] وحين تحدث عن عبد القاهر الجرجاني قال عنه: ((واضع أسس البلاغة، والمشيد لأركانها، وفاتح مغلق أبوابها، وكاشف خبيئها، وموضح مشكلاتها، وعلى نهجه سار المؤلفون بعده، ونهلوا من معينه، واغترفوا من بحره، وأتموا البيان الذي وضع أسسه))[١١] وابتدأ الطور الثالث بكتاب المفتاح للسكاكي، وبعد أن عرض منهج الكتاب، وأخذ عليه اتخاذه لأساليب المنطق والفلسفة سبيلاً لعرض مادته البلاغية قال: ((فنحن...نغفر له تلك الهناة كفاء ما قام به من جليل العمل في تهذيب مصطلحات هذه الفنون،

٨() هي الأطوار الأربعة نفسها التي ذكرها عبد المتعال الصعيدي باختصار في مقدمة كتابه: "البلاغة العالية علم المعاني" تصرف فيها المراغي تصرفاً يسيراً، إذ فكك الطور الثالث الذي يمتد عند الصعيدي من السكاكي إلى العصر الحاضر، إلى طورين: طور السكاكي والعضد، والطيبي، والخطيب، وبدرالدين بن مالك، وطور الشروح والحواشي، كما أن الطور الأول عنده يبدأ بسيبويه، وعند الصعيدي يبدأ بالجاحظ. وتاريخ الطبعة الأولى من البلاغة العالية ١٩٤٥.

٩() تاريخ علوم البلاغة... شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١: ٢٠-٢١. كتب تاريخ هذه الطبعة الأولى على الغلاف ١٩٥٠، وكتب بعد مقدمتها ١٩٤١، ويبدو أن هذا الأخير هو تاريخ إنجاز الكتاب.

١٠() المصدر نفسه: ٤٣.

١١() نفسه: ١٠٠.

والسير بها قدماً نحو الكمال، في استيفاء مباحثها، وتخليص أقسامها بعضها من بعض...))[١٢] وما ذكره من عمل السكاكي هنا لا يعد قشوراً يستغنى عنها كما قال آنفاً.

وبعد ستة أعوام صدر كتاب "البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى" للدكتور بدوي طبانة (ت٢٠٠٠م) الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٥٦ وذكر في تصدير طبعته السادسة أن طبيعة بحثه ((تقضي أن يكون منهجه منهجاً تاريخياً، لأنه يقوم على دراسة تطور الفكرة البلاغية، إلا أن الدراسة الفنية لم تفارقه...))[١٣] فهو يقسم الكتاب إلى ثلاثة فصول موضوعية عن البيان والإعجاز، والبيان والأدب، والبيان البلاغي، ويضيف فصلاً رابعاً عن فكرة البيان عند المعاصرين، ويقول في سياق الحديث عن ابن الأثير أن ((الصورة النهائية للبلاغة العربية قد تم وضعها على يد السكاكي في كتابه المشهور "مفتاح العلوم" الذي نظم دراسة البلاغة، وقسمها إلى فنونها الثلاثة وحدد مباحث كل فن منها))[١٤] وهذا يعني أن الدكتور طبانة يخالف الكثيرين من مؤرخي البلاغة العربية الذين يرون أن البلاغة بلغت قمة نضجها وتكاملها على يد الشيخ عبد القاهر، وأنه واضع قاعدتها النظرية، فهو يرى أن الشيخ عبد القاهر لم يضع أساس علم البيان ولا علم المعاني بمعانيهما الاصطلاحية المعروفة، والأقرب للصدق والواقع أنه ((واضع أسس المنهج التحليلي في دراسة البيان أو المعاني العقلية، ومسايرة العبارات لها ودلالتها عليها))[١٥] بل قال في موضع آخر أن الجرجاني يسير ((في اتجاه مضاد لاتجاه سير البلاغة)) وموضعه الحقيقي ((يجب أن يكون بين نقاد الأدب، وأن يكون في طليعة النقاد العرب، لأن نقده يطوف بأكثر جهات الفن الأدبي))[١٦] ويلاحظ أن الدكتور طبانة يفصل بين نقد الأدب والبلاغة، والتحقيق أنهما سارا متوازيين متضافرين، وبتعبير أدق يعد النقد أحد روافد البلاغة، وهذا يصدق على "أسرار البلاغة" الذي يعد امتداداً لكتب النقد البلاغي كالوساطة والموازنة والصناعتين، ولا يصدق على "دلائل الإعجاز" الذي سار في مسار مختلف مع كتب الإعجاز وصب في قناة علم المعاني، ونؤجل الحديث عن انتقادات الدكتور طبانة لبلاغة السكاكي لتأخذ مكانها في سياق مناقشة الانتقادات الموجهة لها في هذا البحث.

١٢() نفسه: ٣٢.

١٣() نشرة مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٦ : ١٠

١٤() نفسه: ٢٧٠.

١٥() نفسه: ٢٣٨.

١٦() نفسه: ٢٦٢.

ونأتي إلى أشهر كتب تاريخ البلاغة وأبعدها أثراً في الدراسات البلاغية الحديثة "البلاغة تطور وتاريخ" للدكتور شوقي ضيف (ت٢٠٠٥م) وفي مقدمته جعل تاريخ البلاغة وتطورها ((في أربع مراحل هي: مراحل النشأة، والنمو، والازدهار، والذبول))[١٧] وجعل لكل مرحلة منها فصلاً، وحين تحدث عن الجاحظ ضمن مرحلة النشأة في الفصل الأول قال: ((ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا بعد ذلك كله أن الجاحظ يعدُّ –غير منازع– مؤسس البلاغة العربية، فقد أفرد لها لأول مرة كتابه "البيان والتبيين" ونثر فيه كثيراً من ملاحظاته وملاحظات معاصريه))[١٨] وهو بذلك يوافق الدكتور طه حسين الذي رأى أن البيان العربي وضع أساسه الجاحظ، ورفع قواعده وأحكم بناءه عبد القاهر[١٩]، وعنون للمرحلة الثانية بـ"دراسات منهجية" واستعرض فيها كتباً من حقول متنوعة لمتفلسفة ومتكلمين وأدباء ونقاد، بدأها بكتاب البديع لابن المعتز(ت٢٩٦هـ) وختمها بكتاب "سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي(ت٤٦٦هـ) وافتتح مرحلة الازدهار بعبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) وأتبعه بذكر تطبيقات الزمخشري(ت٥٣٨هـ) في الكشاف، غير أن الازدهار عنده تمثل بالشيخ عبد القاهر الذي احتل مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة بوضعه ((نظريتي علمي المعاني والبيان وضعاً دقيقاً، أما النظرية الأولى فخص بعرضها وتفصيلها كتابه "دلائل الإعجاز" وأما النظرية الثانية فخص بها وبمباحثها كتابه "أسرار البلاغة"))[٢٠] والمرحلة الرابعة التي وسمها في المقدمة بمرحلة الذبول عقد لها الفصل الرابع ووضع لها عنوان "التعقيد والجمود" وتبدأ عنده هذه المرحلة بتلخيص الفخر الرازي(ت٦٠٦هـ) لكتابي الجرجاني الدلائل والأسرار، ((ثم تلاه السكاكي فأوفى به على الغاية من الإجمال الشديد، مع دقة الحدود والتعريفات والتقسيمات...))[٢١] ولا أرى وجهاً للمقارنة والمقاربة بين عمل الفخر الرازي والسكاكي، واختزال عمل السكاكي بتلخيص كتابي الدلائل والأسرار، كما هو عمل الفخر الرازي الذي صرح به في مقدمة كتابه، فقال: ((ولما وفقني الله تعالى لمطالعة هذين الكتابين، التقطت منهما معاقد فوائدهما، ومقاصد فرائدهما، وراعيت الترتيب مع

١٧() البلاغة تطور وتاريخ: ٥.

١٨() المصدر نفسه: ٥٧.

١٩() ينظر مقدمة كتاب "نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر بعنوان: "تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر" لطه حسين، تحقيق: عبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥: ٣٠ وطبعة الكتاب الأولى سنة ١٩٣٣م بمطبعة دار الكتب في القاهرة، وأصل هذه المقدمة مقال كتبه الدكتور طه حسين بالفرنسية لمؤتمر جماعة المستشرقين الثامن عشر المنعقد في لندن عام ١٩٣١م وترجمها المحقق العبادي.

٢٠() البلاغة تطور وتاريخ: ١٦٠.

٢١() نفسه: ٢٧٣.

التهذيب، والتحرير مع التقرير...))[٢٢] فما عمله الرازي تلخيص يدور في فلك الجرجاني وينقل أفكاره بدقة، بل يلحظ قارئ هذا الكتاب منذ مقدمته روح الجرجاني وألفاظه وأفكاره ومصطلحاته، ولا يجد قارئ "المفتاح" شيئاً من ذلك في مقدمته أو متنه، ففي المقدمة لم يصرح السكاكي بذكر الجرجاني وكتابيه، بل اكتفى بالإشارة إليه مع غيره بقوله: ((...وقررت ما صادفت من آراء السلف –قدس الله أرواحهم– بقدر ما احتملت من التقرير، مع الإرشاد إلى ضروب مباحث قلت عناية السلف بها، وإيراد لطائف مفتنة ما فتق أحد بها رتق أذن))[٢٣] لقد أفاد السكاكي من تراث الجرجاني بلا شك، كما أفاد من سابقيه، من غير التزام بآرائهم، فهو حين وضع قواعد علم المعاني –على سبيل المثال– لم يؤسسها على قاعدة النظم، بل أدرجها في قانوني الخبر والطلب اللذين لم يأت على ذكرهما الجرجاني، والراجح أنه أخذهما من ابن فارس (ت٣٩٥هـ) ومعاصره ابن وهب الكاتب، ويرى الدكتور طبانة أن أصول علم المعاني مدروسة في باب "معاني الكلام" من كتاب الصاحبي لابن فارس، ويشير إلى نسبة هذا العلم إليه بقوله: ((وبدل أن يشيروا إلى هذا الأصل الذي قام عليه هذا العلم، نراهم يذهبون إلى نسبته إلى عبد القاهر الجرجاني، وهي نسبة لا تقوم على أساس))[٢٤] والجدير بالذكر أن ابن وهب الكاتب هو الذي اختزل معاني الكلام العشرة عند ابن فارس إلى قسمين هما الخبر والطلب، وهو ما أخذ به السكاكي فيما بعد، ويرى الدكتور ضيف أن السكاكي أعطى لعلوم البلاغة صيغتها النهائية التي عكف عليها العلماء من بعده، وهي ((صيغة مضبوطة محكمة استعان فيها بقدرته المنطقية في التعليل والتسبيب، وفي التجريد والتحديد والتعريف، والتقسيم والتفريع والتشعيب...بحيث قلما نجد فيه عوجاً أو أمتا أو انحرافاً، وإنما نجد فيه الدقة والقدرة البارعة على التبويب والإحاطة الكاملة بالأقسام والفروع، ...فقد تحولت البلاغة في تلخيصه إلى علم بأدق المعاني لكلمة علم))[٢٥] وهذا ما أراده السكاكي وحققه بهذا المستوى من النجاح، وهذا ما أحل عمله المكانة التي نجدها في تاريخ البلاغة واهتمام العلماء، بل هذا الذي جعل منه صياغة نهائية ومنهجاً موحداً لدراسة البلاغة في مدارسنا وجامعاتنا إلى اليوم، غير أن ما قاله الدكتور شوقي ضيف عن عمل السكاكي لم يمنعه من تصنيفه في مرحلة ذبول البلاغة وتعقيدها وجمودها، ووصفه بأنه أشاع في علوم البلاغة كثيراً من العسر والالتواء، وأن ما قام

٢٢() نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت والمكتب الثقافي القاهرة، ط١، ١٩٩٢م: ٥٠.

٢٣() مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧

٢٤() البيان العربي: ١٧٣.

٢٥() البلاغة تطور وتاريخ: ٢٨٨.

به من تحديد وتقسيم وتشعيب –وصفها آنفاً بالدقة والقدرة البارعة على التبويب والإحاطة الكاملة بالأقسام والفروع– هي نفسها جعلت ((المباحث البلاغية تشبه غابة بل دغلاً ملتفاً لا يمكن سلوكه إلا بمصابيح من المنطق ومباحث المتكلمين والفلاسفة، وهي مصابيح ما تني ترسل إشعاعات تخنق خلايا النضرة في الدغل الكثيف))[٢٦] وتحجب عنا تلك الخلايا الحية أو تفسد أنسجتها.

وردد الدكتور عبد العزيز عتيق (ت١٩٧٦م) آراء الدكتور شوقي ضيف في تاريخ البلاغة ومراحل نشأتها وتطورها، وبألفاظه في كثير من الأحيان[٢٧]، فقد أكد ما قرره الدكتور شوقي ضيف من أن الجرجاني هو الذي وضع نظريتي علم المعاني وعلم البيان[٢٨] واتفق معه في أن السكاكي هو الذي أعطى ((للمعاني والبيان والفصاحة والبلاغة والبديع الصيغة النهائية التي عكف عليها العلماء من بعده يدرسونها ويشرحونها مراراً وتكراراً))[٢٩].

ومن الكتب ذات الأثر في تاريخ البلاغة كتاب "البلاغة العربية تاريخها. مصادرها. مناهجها" للدكتور علي عشري زايد (ت٢٠٠٣م) الذي رأى فيه أن المتصدي لتاريخ البلاغة ومسار تطورها يواجه صعوبة بالغة لأن هذا التطور ((لم يأخذ دائماً مساراً تاريخياً مستقيماً منتظماً، ولكنه كان يسير في مجموعة من الخطوط المتعرجة المتشابكة التي لا تتوازى إلا لتتقاطع، ولا تلتقي إلا لتتفرق، وهذه الصعوبة تجعل من يتصدى لرصد هذا التطور بين خطرين عظيمين))[٣٠] إما أن تضل به التفصيلات عن المسار العام للتطور، أو تفلت منه الملامح التفصيلية الدقيقة لالتزامه هذا المسار الكلي العام، ولتحاشي الوقوع في هذين الخطرين تناول حركة التأليف البلاغي على مستويين: تاريخي وفني، وبنى تقسيمه لأطوار التأليف البلاغي على علاقة البلاغة بالعلوم الأخرى التي نشأت في كنفها، ونمت في ظلها، وعلى هذا الأساس كانت المراحل التي مرت بها البلاغة في تطورها ثلاثاً: نشأة على هامش

٢٦() المصدر نفسه: ٣١٣.

٢٧() ولد الدكتور عتيق سنة ١٩٠٦ قبل الدكتور ضيف بأربع سنوات، وتوفي قبله بحوالي ٢٩ سنة، غير أن التواريخ الموضوعة على مؤلفات الدكتور عتيق تدل على أنها متأخرة عن تاريخ تأليف كتاب "البلاغة تطور وتاريخ" للدكتور شوقي ضيف، المدون في نهاية مقدمته وهو سنة ١٩٦٥م. وتفيد أن الدكتور عتيق تابع الدكتور ضيف في آرائه.

٢٨() ينظر: علم المعاني، دار النهضة االعربية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٩: ٢٥. وعلم البيان، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٤ : ٢٢. وعلم البديع، دار النهضة العربية، بيروت: ١٣.

٢٩() علم البيان: ٣١.

٣٠() الكتاب من نشر مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٢: ٣

العلوم الأخرى، وتكامل مشترك تبلورت فيها ملامحها، واستقرار وتفرد باستقلال مباحثها ومؤلفاتها[٣١] واقتضاه منهجه هذا أن يدرس ابن المعتز (ت٢٩٦هـ) في مرحلة الاستقرار وعدّه بداية لاستقلال البلاغة، أما كمال الاستقرار وذروة النضج والازدهار، فقد كان بعد ما يقرب من قرنين من الزمان على يد عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) الذي رسم الملامح الأخيرة للمباحث البلاغية، وبلورها في نظرية بلاغية متكاملة[٣٢] ولم يفسح الدكتور زايد للسكاكي والقزويني ومن جاء بعدهما مكاناً في خارطة تطور البلاغة، بل وضع للسكاكي عنواناً خارج هذه الخارطة، قرنه فيها بتجمد البلاغة، إذ لم تلبث البلاغة– في نظره– ((أن انتكست في بداية القرن السابع الهجري على يد أبي يعقوب السكاكي صاحب كتاب "مفتاح العلوم"))[٣٣] فحصرُ السكاكي لمباحث البلاغة، وتقسيمُه وتبويبه المتناهي في الإحكام لعلومها على النحو الذي لا زال يسيطر على مسار التأليف البلاغي حتى اليوم ما هو إلا إفراط خارج عن الاعتدال والقصد! وإذا حظي كتابه بما لم يحظَ به كتاب قبله في تاريخ البلاغة من اهتمام العلماء وإقبالهم عليه، فذاك –في رأيه– من سوء حظ البلاغة العربية![٣٤].

بعد هذا العرض شديد الإيجاز لتاريخ البلاغة، وجهود من أرخوا لها، لتبين الموقع الذي احتله السكاكي عند العلماء السابقين، والموقع الذي وضعه فيه مؤرخو البلاغة المعاصرون، تبلورت لدي ملامح تصور جديد لتاريخ البلاغة ونشأتها وتطورها، أعرضه هنا بإيجاز يناسب هذا البحث، وأرجو أن تتاح لي فرصة قريبة لتفصيله، وهي قراءة مغايرة –إلى حد ما– تعيد رسم مسارات البلاغة، وتوزيع أدوار العلماء الذين أسهموا في نشأة البلاغة وتطورها، وتبين دوافعهم وغاياتهم، وتوضح بشكل موضوعي حجم هذه الأدوار ومدى أهميتها في سياقها الزمني الذي تمت فيه، وتراعي هذه القراءة المسارات المتعددة التي سارت فيها جهود العلماء لتلتقي في نهاية المطاف في الحدود التي نعرفها اليوم للبلاغة العربية، وهذه المسارات هي روافد ثلاثة تشكلت متزامنة، في أوقات متقاربة، كل منها بمعزل عن غيرها، لذلك لا يحمل ترتيبها معنى السبق الزمني لأي منها.

٣١() ينظر الصفحات: ٤،٥، ٩،١٠.

٣٢() ينظر: ص١٠٨– ١١٥، ١٢٧.

٣٣() نفسه: ١٤٠.

٣٤() ينظر: ١٤٤–١٤٥.

الرافد الأول هو البحث الذي كان يدور في أوساط أهل المنطق والمتأثرين به من رجال الكلام، حول أقسام الكلام ومعانيه العامة، ودلالة تراكيبه المختلفة، واستقى هذا الرافد مبادئه الأولى من المنطق اليوناني، ولعل أول إشارة لذلك ما ذكره ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) في سياق امتعاضه من طائفة كانت تطالع كتب اليونان ومنها "حد المنطق"، ويصف أتباعها بالعُجب بالنفس، والزراية على الإسلام، والطعن في كتاب الله –عز وجل– والانحراف عن علوم العرب والإسلام إلى علم قد سلمه لهم المسلمون، ((له ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم)) وذكر من مقولاتهم: ((...والكلام أربعة: أمر، وخبر، واستخبار، ورغبة، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب، وهي: الأمر، والاستخبار، والرغبة، وواحد يدخله الصدق والكذب، وهو الخبر، والآن حدّ الزمانين، مع هذيان كثير...))[٣٥] ويظهر أن المتكلمين في هذا الموضوع، والمهتمين به لم يلتزموا تقسيماً معيناً ينسب لليونان، بل تعددت تقسيماتهم للكلام، فعند الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المتوفى حوالي سنة (٢١٥هـ) ((معاني الكلام ستة، وهي محيطة بالكلام: خبر، واستخبار، ودعاء، وتمنٍ، وأمر، وطلب))[٣٦] وتصل هذه الأقسام إلى عشرة عند ابن فارس (ت٣٩٥هـ) في الباب الواسع الذي عقده لمعاني الكلام، وشملت الخبر والإنشاء بنوعيه: الطلبي وغير الطلبي[٣٧] وذكرنا آنفاً أن الدكتور بدوي طبانة يرى أن هذا الباب تضمن أصول علم المعاني، وذكرنا أيضاً أن ابن وهب الكاتب المعاصر لابن فارس اختزل الأقسام العشرة في قسمين: خبر وطلب، وصب هذا الرافد في نهر البلاغة على يد السكاكي إذ جعله القاعدة النظرية لعلم المعاني الذي أقامه على قانوني الخبر والطلب.

الرافد الثاني: دراسات الإعجاز التي تبنت نظرية النظم، وتتمثل بمباحث ورسائل كتلك التي تنسب للجاحظ والواسطي، وأهم ما بقي بين أيدينا منها "النكت في إعجاز القرآن" لعلي بن عيسى الرماني (ت٣٨٦هـ) و"بيان إعجاز القرآن" للخطابي (ت٣٨٨هـ) وكتاب أبي بكر محمد الباقلاني (٤٠٣هـ) "إعجاز القرآن" والجزء السادس عشر من كتاب "المغني في أبواب التوحيد والعدل" الخاص بإعجاز القرآن للقاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ) وأثرى الشيخ عبد القاهر الجرجاني هذا الرافد بكتابه القيم "دلائل الإعجاز" وضم السكاكي هذا الرافد إلى سابقه وشكل منهما علم المعاني، والمعاني في هذا

٣٥() أدب الكاتب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ط٤، ١٩٦٣: ٤

٣٦() الأمالي الشجرية، لابن الشجري هبة الله بن علي العلوي (ت٥٤٢هـ) دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت: ٢٥٤/١.

٣٧() ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، ١٩٦٣: ١٧٩–١٨١.

العنوان أخذت من معاني الكلام عند ابن فارس وسابقيه، ولا علاقة لها بمعاني النحو التي تحدث عنها الجرجاني في الدلائل، كما توهم عدد من المعاصرين[٣٨]، ولذلك نلاحظ عدم الدقة في قول القائل: ((إن الفضل في ابتكار هذا العلم يعود إلى عبد القاهر وحده)) و((أن مسائل هذا العلم لم تدرس قبله، ولم تعالج على هذا النحو الذي قام به عبد القاهر...ولعل تعب عبد القاهر في الحديث عن معاني النحو، وأن النظم ليس شيئاً إلا توخي هذه المعاني هو الذي أوحى بتسمية هذا العلم بعلم المعاني))[٣٩]

الرافد الثالث: هو النقد البلاغي أو ما سماه ابن المعتز بالبديع، بل سبقه الجاحظ بهذه التسمية وهو يتحدث عن المجاز أو الاستعارة بقوله: ((...قوله هم ساعد الدهر، إنما هو مثل، وهذا الذي تسميه الرواة البديع))[٤٠] وهذا ما قصده بقوله في الصفحة نفسها: ((...والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان))[٤١] وفهم البعض من كلامه أنه ينكر وجود البلاغة أو فنون البديع الاصطلاحي في اللغات الأخرى، واتهمه بالتناقض لنقله في مواضع من كتابه أقوال الفرس والروم والهنود عن البلاغة، ولعل ابن رشيق (ت٤٦٣هـ) يزيل هذا اللبس في قول الجاحظ بقوله في باب المجاز: ((العرب كثيراً ما تستعمل المجاز، وتعدّه من مفاخر كلامها، فإنه دليل الفصاحة، ورأس البلاغة، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات))[٤٢] وكلام الجاحظ ورد في السياق نفسه، والمثل عنده هو المجاز، وكلاهما يطلق البديع على المجاز وفنونه والتشبيه والكناية وهي فنون علم البيان، مع الجناس والطباق وغيرهما من فنون البديع، وهي فنون الشعر عندهما، وإذا أطلق عليها الجاحظ اسم البيان فبمعناه اللغوي العام، وسماها صاحب العمدة محاسن الشعر، وابن المعتز البديع، والجرجاني أسرار البلاغة، وسماها الزمخشري الصنعة البديعية عند شرحه للاستعارة المرشحة، إذ قال: ((قلت: هذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا))[٤٣] واختصاصها بالعرب إنما هو لثراء لغتها وكلامها بالمجازات، ولطائف الاستعارات، ودقائق التشبيهات، وجمال الأسجاع والجناسات

٣٨() أول من قال بهذا الأستاذ إبراهيم مصطفى في إحياء النحو، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م : ١٩

٣٩() عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، د.أحمد أحمد بدوي، مكتبة مصر، القاهرة، (د.ت): ٣٦٩.

٤٠() البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٩٨٨: ٤/ ٥٥.

٤١() المصدر نفسه.

٤٢() العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٩٨١م: ١/٢٦٥.

٤٣() الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١/١٠٨.

وسائر المحسنات، ويفهم من كلام ابن رشيق أن المجازات عند غير العرب اضطرار لضيق ألفاظهم عن معانيهم، وعند العرب اتساع واقتدار لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم، وليس ذلك عند غيرهم[٤٤]

ولعل الجاحظ هو من فجر هذا النبع، وحفر مجراه ابن المعتز (ت٢٩٦هـ) غير أن تسمية كتابه بالبديع لا يعني خروجه عن هذا الاتجاه في دراسة فنون الشعر التي كانت تندرج تحت عنوان البديع، أو الصنعة البديعية، أو أن يكون عمله قفزة في مسار تطور علم البديع واستقلاله عن علمي البيان والمعاني، في ذلك الوقت المبكر، وهو لا يختلف عن إطلاق أبي عبيدة لاسم المجاز على معاني القرآن أو غريبه التي كانت تعرف حينها بالمجاز، وابن المعتز يصرح بأن البديع عنده ((اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء، ونقاد المتأدبين منهم...))[٤٥] واستمر نقاد الشعر والأدب من أمثال القاضي الجرجاني، والآمدي، وأبي هلال العسكري، في توسيع هذا الرافد من روافد البلاغة وتعميقه حتى بلغ مداه عند الشيخ الجرجاني الذي أضفى عليه شيئاً من ذوقه الأدبي، وشيئاً من لونه الكلامي، فهو يفتتح كتابه "أسرار البلاغة" بالكلام وأهميته، والبيان وفضله، ويعرض مفهومه للنظم، ويستشهد بالجناس الذي يعدّه النقاد والبلاغيون فناً أو محسناً لفظياً ليثبت لهم أن مرجع الفضل والحسن فيه هو المعنى دون اللفظ، ويضم إليه السجع وينتقل إلى الاستعارة ويفصل القول فيها، ثم التشبيه بصوره المتعددة والحقيقة والمجاز، ولا يذكر شيئاً عن الكناية، وهي ثالثة أثافي علم البيان مع التشبيه والمجاز، وهذه الموضوعات أو أكثرها–كما يلاحظ الدكتور بدوي طبانة– ((قد سبقت دراستها وعلاجها على نحو ما عند كثير من العلماء والنقاد الذين سبقوا عبد القاهر))[٤٦] وهذا الوصف لكتاب "أسرار البلاغة" أدق من قول الدكتور شوقي ضيف عنه ((أنه وضع قوانين البيان لأول مرة في العربية وضعاً دقيقاً))[٤٧] والحق أنه لم يكن بصدد وضع نظرية وقوانين لعلم البيان كما نعرفه اليوم، بل هو امتداد لأولئك النقاد الذين درسوا ظاهرة البديع ابتداء بالجاحظ، ولا ينكر أن الجرجاني أضاف إلى دراساتهم عمقاً في التحليل، من الناحية النقدية، واقتراباً من التنظير من الناحية العلمية، لكن عمله لم يخرج من دائرة الأدب والنقد والبديع، فهو ينص حين يتعرض لتوسع كتب اللغة في مفهوم الاستعارة –على سبيل

٤٤() ينظر: ١/ ٢٧٤ من العمدة.

٤٥() البديع، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٠: ١٥١.

٤٦() البيان العربي: ٢٤٩. ويؤيد الدكتور علي عشري زايد رأي الدكتور طبانة بأن ((معظم فنون البيان كانت مدروسة قبل عبد القاهر بصورة أو بأخرى...)) البلاغة العربية تاريخها. مصادرها. مناهجها: ١١٥.

٤٧() البلاغة تطور وتاريخ: ٢١٨.

المثال– و((ليس هذا المذهب بالمذهب المرضي)) بل الصواب –عنده– هو ما تقرر ((على طريقة أهل الخطابة ونقد الشعر)) و((كما هو شرط أهل العلم بالشعر))[٤٨] واستشهد بقول الآمدي على أن ((الاستعارة، والطباق والجناس)) ((هي التي وقع عليها اسم البديع))[٤٩] ويستنتج من ذلك أن مسار علمي البيان والبديع مسار واحد من حيث النشأة والتطور، ولا ينبغي أن نتحدث عن أحدهما بمعزل عن الآخر، كمن يقول بأن ابن المعتز وضع أسس علم البديع، أو أن الجاحظ أو عبد القاهر وضع نظرية علم البيان، فقد بقي هذان العلمان ممتزجين ينتسبان إلى الأدب ونقده أكثر من انتسابهما للبلاغة، إلى أن فصل بينهما السكاكي، وصنف مباحث كل منهما ووضع حدّه، وجعله علماً مستقلاً عن الأدب، فالبلاغة في إحدى دلالاتها الاصطلاحية المعروفة كانت تطلق على مباحث علم المعاني، كما يقرر ذلك ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) في المقدمة، وينص على أن البديع من أصناف البلاغة اختص بأهل المغرب، ((وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية))[٥٠] هذه القراءة السريعة لتاريخ البلاغة وعلومها تلقي الضوء على دور السكاكي الذي تعرض لكثير من الطمس والتشويه.

المؤاخذات على السكاكي: عرض ونقاش

في العقد الأخير من القرن الثامن عشر شن الشيخ الإمام محمد عبده (ت١٩٠٥م) حرباً على الأزهر، كان شعارها التغيير والتجديد، دارت حول المناهج والكتب التي كان يدرسها حينذاك، وشملت مناهج البلاغة التي كانت تدور حول تلخيص المفتاح وشروحه، يذكر الأستاذ محمود محمد شاكر(ت١٩٩٧م) مواقف الشيخ عبده وتلامذته من التراث وكتبه عامة، وتراث البلاغة العربية بخاصة وآثارها الخطيرة التي ترتبت عليها، بكثير من المرارة، فحين يتحدث عن مقدمة الشيخ محمد رشيد رضا(١٩٣٥م) لأسرار البلاغة، يقول: ((ورأيت ما فيها من الغمز في عمل السكاكي ثم الطعن الشديد في كتب السعد التفتازاني وحواشيه على "تلخيص المفتاح" للخطيب القزويني، حتى سماها ((الرسوم الميتة التي سماها الجهل علماً...))[٥١] ثم يذكر شرح الشيخ البرقوقي (ت١٩٤٤م) لتلخيص المفتاح، ويقول: ((فرأيته في مقدمته يغمز في عمل السكاكي، ثم يقول أيضاً في الحواشي على تلخيص المفتاح

٤٨() أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط١، ١٩٩١: ٤٠٠.

٤٩() نفسه: ٤٠٢.

٥٠() مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، ومكتبة الهداية، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م: ٣٧٥/٢.

٥١() مقدمة أسرار البلاغة: ١٧.

للخطيب القزويني مثلما قال الشيخ رشيد))[٥٢] والغمز الذي أشار إليه الأستاذ شاكر هو قوله –بعد أن ذكر جماعة من البلغاء، ووقف عند الشيخ عبد القاهر وأطال عليه الثناء–: ((قام بعد هؤلاء أبو يعقوب يوسف السكاكي: إمام فتّ في عضده حب الفلسفة، فعمد إلى هذا العلم، وقبع في كِسر بيته، لا يرى إلا نفسه، ولا يسمع إلا حِسّه، ووضع ما وضع مما نهج فيه أهل النظر من الحكماء، لا منهج المطبوعين من البلغاء...))[٥٣] ولم يسوِّ البرقوقي بين السكاكي، والمتأخرين من شراح التلخيص، بل جعله ((وسطاً بين عبد القاهر وأضرابه من المتقدمين، وبين عبد الحكيم[٥٤] وأترابه من المتأخرين))[٥٥] وذكر بعد ذلك القزويني وأثنى على عمله بقوله: ((نهض بعد ذلك جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، فهذب ما وضعه السكاكي، وضم إليه نتفاً مما وضعه عبد القاهر، وأخرج للناس كتاباً هشت له النفوس، وأصاب منها مواقع الماء من ذي الغُلَّة الصادي))[٥٦].

يؤكد الأستاذ محمود شاكر في أكثر من موضع ((أن ما قاله الشيخان إنما هو ترديد لما كان يقوله الشيخ محمد عبده في دروسه ومجالسه))[٥٧] ويرى أن الشيخ محمد عبده وتلامذته ورَّثوا الأجيال التالية الاستهانة بكتب التراث والطعن فيها ((وفُتح هذا الباب–حسب قوله– ولم يغلق إلى اليوم))[٥٨] ومن ذلك اليوم إلى يومنا هذا توالت الانتقادات للسكاكي وصنيعه بالبلاغة العربية.

مآخذ على المنهج والأسلوب

تركزت مآخذ العلماء والدارسين في المرحلة الأولى على المقارنة بين أسلوب السكاكي في "المفتاح"، والمصنفات التي انبثقت عنه شرحاً وتلخيصاً، وأسلوب الشيخ عبد القاهر في كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" اللذين بقيا في طي النسيان لقرون من الزمان، وأحيا ذكرهما الشيخ محمد عبده وتلامذته، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأثير حولهما موجة من الاهتمام يستحقانه بالتأكيد، إذ ملآ فراغاً في الدراسات النقدية والتحليلات البيانية، كان السكاكي قد مخض

٥٢() المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٥٣() التلخيص في علوم البلاغة ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٣٢، وكانت طبعته الأولى سنة ١٩٠٤م وفيها تقريظ الشيخ محمد عبده، والنص من مقدمة الطبعة الأولى: ٣.

٥٤() عبد الحكيم السيالكوتي (ت١٠٦٧هـ) له حاشية معروفة على شرح سعد الدين التفتازاني "المطول" على التلخيص.

٥٥() م.ن، ص.ن.

٥٦() م.ن: ٤

٥٧() مقدمة أسرار البلاغة: ١٨،٢٦.

٥٨() نفسه: ١٩.

زبدتهما في مشروعه التقعيدي والتنظيري للبلاغة العربية، ولم يكن عمله يحتمل جمالية اللغة، وبراعة التحليل والاستدلال اللذين نجدهما عند الشيخ عبد القاهر لأسباب موضوعية تتعلق باختلاف الأهداف وتباين منهج البحث، اتهم السكاكي بإقحام الفلسفة والمنطق في البحث البلاغي، والذهاب بروائه وبهائه في كتب السابقين، وكتابي الجرجاني بخاصة، وربما كانت هذه الدعوى أداة في معركة الشيخ محمد عبده الإصلاحية ضد الأزهر ومناهجه، والدعوة إلى تغييرها، إذ لم يشهد الواقع في قديم الزمان وجديده اعتماد كتابي الشيخ عبد القاهر منهجاً لتعليم البلاغة، إلا في فترة وجيزة بعد وفاة الشيخ محمد عبده[٥٩] كما لم يعتمد كتاب سيبويه منهجاً لتعليم النحو، على جلالة قدر هذه الكتب، وعظيم مكانتها في علمي البلاغة والنحو، والسبب واحد هو افتقادها للتصنيف والتبويب المطلوبين في مناهج التعليم.

والذين أخذوا على السكاكي تأثره بالفلسفة، ويقصدون بها المنطق الذي عدّه أجيال من العلماء قبل السكاكي وبعده آلة العلم، أو معيار العلوم، وقد كان بالفعل منهج البحث العلمي الذي ترك آثاره الإيجابية على معظم العلوم أو كلها لذلك العهد، وأسهم في تطورها، وترصين مناهجها، وإثراء لغتها بالمصطلحات الضرورية، ووفر لها منهجية علمية، ومعايير للاستدلال تضبط مقدمات البحث ونتائجه، فكان عاملاً إيجابياً في بلوغ العلوم مستويات عالية من الدقة العلمية المتاحة في تلك العصور، ويكفي أن نذكر أن الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ) قدّم لكتابه "المستصفى" بمقدمة عن المنطق ومباحث الحد والبرهان، وقال عنها: ((هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها، فلا ثقة له بعلومه أصلاً، ...وحاجة جميع العلوم النظرية إلى هذه المقدمة كحاجة أصول الفقه))[٦٠] وعلوم البلاغة كعلم أصول الفقه من العلوم النظرية التي تعنى بالتقعيد والتقنين والتحديد، وليس بمقدور الباحث فيها في ذلك العهد أن يتجنب المنطق وأصوله وقواعده، فضلاً عن مسألة مهمة لا يتنبه لها الكثيرون، وهي أن معاصري السكاكي والذين شرحوا كتابه أو لخصوه، لم يعيبوا عليه منطقه، بل أثنوا عليه، ويبين هذا أهميته التاريخية في سياق المرحلة الزمنية التي كتب فيها، ولا تنحصر أهمية الكتاب بهذا البعد التاريخي، كما هو حال كثير من المصنفات التي فقدت أهميتها العلمية بفعل التطور، بل لا زال الكتاب يحتفظ بأهمية علمية وحضور فاعل في الساحة البلاغية تجاوزت قروناً عديدة من الزمان، ولعل هذا هو السبب في

٥٩() ينظر: تاريخ الإصلاح في الأزهر وصفحات من الجهاد في الإصلاح، عبد المتعال الصعيدي، مطبعة الاعتماد بمصر، ط١، ١٩٤٣: ٧٨. كان ذلك في سنة ١٩٠٨م حيث تقرر تدريس دلائل الإعجاز في السنة التاسعة، وأسرار البلاغة، أو الصناعتين في السنة العاشرة، في مادة البلاغة التطبيقية.

٦٠() تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٣: ١٠. المقدمة من ص١٠إلى ص٤٤.

حديث المعاصرين عن الكتاب ومنهجه وأثره، فهم لا يتحدثون عن تراث مضى، وانقطع أثره، بل هو تراث حاضر لا زال يرسم لنا مناهج تعليم البلاغة في مدارسنا وجامعاتنا إلى اليوم، ولا وجه للمقارنة في هذا الجانب بين "مفتاح العلوم" الذي يقوم على التنظير والتقعيد، وكتابي الجرجاني اللذين يغلب فيهما التطبيق والتحليل على التنظير، وقد أصاب الشيخ عبد العال الصعيدي (ت١٩٦٦م) حين عدّهما مثالاً للطور الثاني من أطوار البلاغة الذي أخذ ((بشيء من البحث الفلسفي، يسرف فيه أحياناً، ويقتصد فيه أحياناً أخرى... ويمتاز الطور الثالث بطغيان البحث الفلسفي))[٦١] ويبتدئ هذا الطور الثالث ويتمحور حول كتاب "مفتاح العلوم" فلم يكن الشيخ عبد القاهر بمنأى عن التأثر بالمنطق، غير أن تأثره يتناسب مع قدر التنظير في عمله، فمعيار التأثر والأخذ يرتبط بطبيعة العمل ومنهجه، لا بالأطوار الزمنية، كما صنف ذلك الشيخ الصعيدي، فثمة أبحاث نظرية في الطور الأول، الذي وصفه بكونه أقرب إلى الأدب منه إلى البحث الفلسفي، سارت على المنهج الذي اتبعته مصنفات الطور الثالث، أما البحث الأدبي عند الجاحظ الذي جعله مما امتاز به الطور الأول، فقد استمر إلى عهد عبد القاهر وظهرت كثير من ملامحه في "أسرار البلاغة" بل نجده عند ابن الأثير(ت٦٣٧هـ) المعاصر للسكاكي في المثل السائر، ويتجاور الاتجاهان في شخص الشيخ عبد القاهر، فهو كما يقول الأستاذ أمين الخولي: ((متكلم فلسفي تارة، وهو أديب صانع كلام وناقده طوراً، هو متكلم أو بليغ كلاميٌّ الدرس في كتابه "دلائل الإعجاز" وبليغ أديب في كتابه الآخر، "أسرار البلاغة"))[٦٢] وبقي الذوق هو الحكم في هذا النوع من الدراسات ذات الطابع الأدبي النقدي، ونضب معين هذه الدراسات أو كاد بعد هذا التاريخ، وفي مشرق العالم الإسلامي بخاصة، إذ انشغل العلماء بوضع قواعد معيارية للعلوم، لا تتسع للذوق، وظلت هذه المعيارية هي الحاكمة، في الطور الرابع أيضاً، وهو عصر النهضة الحديثة، حيث تميز – كما قال الصعيدي– بمحاولة القضاء على البحث الفلسفي في هذه العلوم، فعلوم البلاغة إلى اليوم تدرس بمعيارية السكاكي، على الرغم من كل الانتقادات التي وجهت إليها في عصر النهضة، منذ أواخر القرن التاسع عشر، وإلى اليوم، ولم يمنع ذلك من نشاط الدراسات الأدبية والنقدية، حين توفرت لها أسباب النهوض، في العصر الحديث، على وفق مناهج متعددة، ولكنها لم تعد تحسب على علم البلاغة، وهي تعنى في الغالب بالجانب الجمالي المؤثر في النص، وتؤثر الذوق وهي تطبق قواعد

٦١() البلاغة العالية، علم المعاني، مراجعة وتقديم: د.عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، ط٢، ١٩٩١: ١.

٦٢() مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ط١، ١٩٦١: ١٦٢– ١٦٣.

البلاغة وقوانينها، مع ملاحظة أن هذا الجانب الذوقي كذلك يخضع للتطور بفعل عوامل الحضارة، وتراكم الخبرات والمعارف الإنسانية، وهذه مفارقة يقع فيها من يضعون ثنائية الذوق والمنطق المعياري للمفاضلة بين عمل قطبي البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني والسكاكي، بعدم مراعاة الفارق الزمني، واختلاف منهج البحث وغاياته.

ومن دواعي نقد المعاصرين لبلاغة السكاكي نظرتهم إلى البلاغة، وأنها منحصرة –في نظرهم– في اتجاه من اتجاهاتها، ورافد من روافدها امتزج بالأدب، واقترن بالنقد، ومن طبيعة هذا الاتجاه العناية بالنصوص الشعرية، والموازنة بينها، وتحكيم الذائقة الأدبية في المفاضلة بينها، فهم لا ينون يشيدون بهذا الاتجاه الذي يرون أنه بلغ أوج ازدهاره على يد الجرجاني في "أسرار البلاغة" ثم يجدون أن السكاكي قد خالف هذا النهج، وانشغل بوضع قواعد وقوانين، وصياغة تعريفات وحدود، واكتفى من النصوص بما يشهد على صحة القاعدة ودقة الحد، إذ لم تكن عدّته في عمله هذا الاستشهاد بالنصوص، ولا شحذ الذوق، بل إعمال العقل والاستعانة بالمنطق، كما لم يكن مجال عمله مقتصراً على كتب الأدب والنقد التي استقى منها علمي البيان والبديع، بل امتد إلى حقول اللغة، ومباحث الخبر والإنشاء، ونظرات علماء الإعجاز في النظم، فجمع من رحيقها علم المعاني.

وينضاف إلى دواعي النقد أيضاً المفارقة الواضحة بين الجرجاني والسكاكي في الملكة البيانية وأسلوب التعبير، فقد تفوق الجرجاني في هذا الجانب تفوقاً ظاهراً، ويكمن السبب في طبيعة الرجلين، ونشأتهما العلمية؛ فقد عانى الجرجاني طلب العلوم والآداب منذ نعومة أظفاره، فصقلت موهبته البيانية، ولم يكن كذلك السكاكي الذي دخل ميدان العلوم متأخراً، كما هو معروف، فحاز العلوم وتمكن منها، ولم تتمكن في نفسه ملكة البيان؛ فالملكات النفسية تتطلب المران الطويل، وهي أطوع في مراحل النشأة والصبا، ولعل القدماء تنبهوا إلى ذلك، فأعادوا صياغة أفكاره، كالذي فعله القزويني في تلخيصه الذي لاقى قبولاً أكبر من أصله، ولا يقدح هذا الجفاف الأسلوبي في جوهر عمله، وقيمته العلمية، فالأسلوب العلمي الذي كتب به المفتاح توخى فيه الدقة، كما هو شأن المصنفات العلمية، ولا يقارن بأسرار البلاغة الذي حلل فيه الجرجاني نصوصاً أدبية تحليلاً فنياً بيانياً، ولا بكتاب دلائل الإعجاز الذي مزج فيه بين الأسلوب التحليلي البياني، والحجاج الكلامي، ومن الجدير بالتنويه أن السكاكي لا يقلل من أهمية الذوق وهو يضع قواعد علم البلاغة، أو صناعة البلاغة بلغة عصره، ولا يختلف مع الشيخ عبد القاهر في شأنه، بل يدرك أن الذوق من ثمرات ملكة البلاغة التي لا تتهيّأ للشداة في طلب الآداب

وصناعة الكلام، ولأهمية هذه المسألة –عنده– مهّد بها الكلام على علم المعاني، فبعد أن ذكر فنون الخبر ومباحثه الأربعة قال: ((...ليس من الواجب في صناعة، وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها إلى مجرد العقل، أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة الذوق منها، ...فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلد صاحبها في بعض فتاواه، إن فاته الذوق هناك، إلى أن يتكامل له، على مهل، موجبات ذلك الذوق، وكان شيخنا الحاتمي...يحيلنا بحسن كثير من مستحسنات الكلام–إذا راجعناه فيها– على الذوق...وها هو الإمام عبد القاهر –قدس الله روحه– كم يعيد هذا))[٦٣]

ويُتهم السكاكي بأنه تسبب في جمود البلاغة، وهي دعوى رددها الكثيرون بلا دليل، وقد تكشف لنا العودة إلى تاريخ البلاغة، والتمعن في حاضرها، حقيقة هذه الدعوى، وعدم مطابقتها للواقع، بالنظر إلى أثر كتاب المفتاح الذي حرك الركود في الدرس البلاغي لما يزيد على قرن من الزمان، فلا نجد بين كتابي الشيخ عبد القاهر ومفتاح العلوم من المصنفات المهمة غير تفسير الكشاف للإمام الزمخشري (ت٥٣٨هـ) و"نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" للإمام فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) والأول كتاب في التفسير عدّه المعاصرون تطبيقاً لأفكار الشيخ عبد القاهر في الدلائل والأسرار، وأثراً من آثاره، وإذا كنا لا نجد من ينازع في ذلك، ولكننا لا نجد أيضاً من يؤيده بدليل، بل لا يثبت اطلاع الإمام الزمخشري على الكتابين، فضلاً عن ثبوت أخذه منهما، فهو لا يذكر الشيخ عبد القاهر لا في مقدمة كتابه، مع ذكره لعلمي المعاني والبيان، وأهميتهما في التفسير، ولا في تحليلاته البلاغية في سياق تفسيره للآيات القرآنية، وقد يقال بأن المباحث البلاغية التي ذكرها واستعان بها في التفسير والتحليل موجودة في كتابي الدلائل والأسرار، وهو دليل كاف لتأثر اللاحق بالسابق، ويضعف هذا القول أن هذه المباحث جميعاً كانت معروفة ومدونة قبل الشيخ عبد القاهر، وإنما تميز هو في قدراته العالية في تطبيقها في سياقات نصية لم تتهيأ لغيره، حتى المجاز العقلي الذي سماه هو المجاز الحكمي، نجد أمثلته ومفهومه عند كثيرين قبله، مثل أبي عبيدة والفراء وابن قتيبة، وسماه الزمخشري بالإسناد المجازي، وليس المجاز الحكمي، وعرفه بعبارة أوجز وأكثر وضوحاً من كلام الشيخ عبد القاهر وهي قوله: ((وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس الذي هو في الحقيقة له، كما تلبست التجارة بالمشترين))[٦٤] والمتتبع للمباحث البلاغية في الكشاف وكيفية تناولها وإجرائها على النصوص، لا يجد

٦٣() مفتاح العلوم: ١٦٩.

٦٤() الكشاف: ١٠٧/١.

أثراً واضحاً لكتابي الشيخ عبد القاهر، وإذا ثبت هذا يكون الكشاف مصدراً مستقلاً من مصادر البلاغة، لا أثراً تابعاً لكتابي الدلائل والأسرار، كما يدرس في تاريخ تطور البلاغة العربية.

أما كتاب "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" فهو بالفعل تلخيص لكتابي الدلائل والأسرار، حاول فيه فخر الدين الرازي إعادة صياغة الكتابين ليستخلص منهما أصول العلم وقوانينه، وحججه وبراهينه التي قال إن الإمام عبد القاهر استخرجها، ولكنها ضاعت وتفرقت في خضم مبالغاته في الكشف عن حقيقة هذا العلم، والذهاب وراء لطائفه ودقائقه، ففاته رعاية ترتيب الفصول والأبواب، وأطنب في الكلام كل الإطناب[٦٥] فهذا الإطناب، وتلك المبالغات التي أراد الرازي أن يجرد منها الكتابين هي المزايا التي يذكرها المحدثون للجرجاني، ويلومون السكاكي على تجريد البلاغة منها، ذلك أن البلاغة كانت تتجه نحو التقنين والتقعيد، وتسعى من أجل أن تكون علماً، بعد أن كانت على هامش العلوم الأخرى، تستخدم مباحثها أدوات في خدمة الأدب والنقد وعلم الإعجاز والتفسير وأصول الفقه وغيرها، ولقد بذل الرازي جهده، وأبلى بلاءه في تحقيق هذا الهدف، ورأى –كما يرى الدارسون المحدثون– أن الشيخ عبد القاهر أودع نظرية البلاغة العربية بقسميها: المعاني والبيان في الدلائل والأسرار، فوضع الكتاب في جملتين: الجملة الأولى في المفردات، وتضم مباحث علم البيان، والجملة الثانية في النظم وتضم مباحث علم المعاني، ولكنه لم يستطع تخليص هذه المباحث بصورة دقيقة، فذكر الخبر وبعض ما يتعلق به في الجملة الأولى، وبعض فنون البديع في الجملة الثانية، ويعود ذلك إلى اعتماده الكامل على كتابي الشيخ عبد القاهر، وتضييق دائرة بحثه عليهما، وقدم للمبحثين بمقدمة عن الإعجاز والفصاحة التي يرى أنها الوجه الراجح للإعجاز، وهذه المقدمة تعبر عن رأيه هو لا رأي الشيخ عبد القاهر، ولا يخلو كتاب الرازي من تصرف وإضافات، ومن تضعيف أيضاً لرأي الشيخ عبد القاهر، كالذي عقب به على رأيه في بلاغة الكناية وفضلها على الإفصاح، قال: ((هذا ما قاله الشيخ، وهو عندي ضعيف لوجهين...))[٦٦] ولعل أول إخفاق للفخر الرازي يتجلى في عنوان كتابه الذي يوحي بأن البلاغة ليست سوى وسيلة لإثبات الإعجاز، وهو ما يؤكده في مقدمته كذلك؛ ولذلك، ولملاحظات أخرى لا يتسع المجال لذكرها، لم يجد فيه رجال البلاغة خطوة موفقة نحو استقلال علم البلاغة، وهي

٦٥() ينظر: مقدمة نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، مصدر سابق: ٥١.

٦٦() م.ن: ص١٩٢، ورأي الشيخ عبد القاهر في بلاغة الكناية هو ما أخذه عنه البلاغيون بعده، واعتمدوه إلى اليوم.

ضالتهم التي وجدوها في مفتاح السكاكي، فأحاطوه بعناية كبيرة، واهتمام بالغ، عدّه المعاصرون من سوء حظ البلاغة[٦٧].

إن ما كتبه السكاكي يجب أن يُقرأ في السياق الزمني الذي كُتب فيه، وأن يؤخذ بنظر الاعتبار مواقف المعاصرين له، فهم الأقدر على تقدير قيمته، ووضعه الموضع الذي يستحقه في تاريخ البلاغة العربية، ومن لطيف ما قرأت في هذا السياق ما كتبته الدكتورة سهير القلماوي في تقديمها لكتاب الدكتور أحمد مطلوب، وهو من تيار المتحاملين على السكاكي الذين يحمّلونه أوزار جمود البحث البلاغي وجفافه، قالت: ((...ولقد ظلم أحمد مطلوب السكاكي –نوعاً ما– حينما جعله المسؤول عن جفاف هذه الدراسة التي نتجت عن جفاف الكتاب نفسه، ولكن الواقع أن البلاغة والنقد الأدبي لابد أن تمر في هذه الأطوار دائماً...وليس واحداً –من يكون– هو المسؤول عن ذلك، وإنما المسؤول أمة بأسرها، وظروف في جملتها، إن السكاكي قدم في عصره –وبكل إخلاص العالم الدائب المتأثر بروح العصر، وما كان له إلا أن يتأثر– أقصى ما يمكن أن يقدمه عالم دارس في سبيل علم من العلوم...))[٦٨] وإنه لمن الظلم الواضح البين، كما يقول الدكتور عبد الحميد هنداوي ((أن نحاكم مؤلفات القرن الثامن الهجري وما بعده –حيث شروح التلخيص والمفتاح على كثرتها– إلى المناهج الحديثة في الدرس البلاغي، فلكل عصر طبيعته ومنهجه))[٦٩].

إن حركة التأليف التي انطلقت من كتاب المفتاح هي الرد العملي على القائلين بأن عمل السكاكي تسبب في جمود البلاغة، وركودها، فالفكر البلاغي كان أكثر حيوية ونشاطاً بعد السكاكي مما قبله، وكان المفتاح قطب هذا النشاط، والباعث لتأليف عشرات الكتب ذات الأهمية في رسم الملامح النهائية للبلاغة العربية، وقد يقال بأن هذه الحركة أنتجت تراكماً كمياً قام على اجترار المفتاح ومن بعده التلخيص، من غير إضافة تذكر، لكن واقع هذه المؤلفات يرد هذا القول، ويكفي أن نقف عند منهج القزويني في التلخيص والإيضاح، كما رسمه هو، يقول في "التلخيص" بعد أن شرح عمله في المفتاح: ((وأضفت إلى ذلك فوائد عثرت في بعض كتب القوم عليها، وزوائد لم أظفر في كلام أحد

٦٧() ينظر: البلاغة العربية...د. علي عشري زايد: ١٤٥، ٢٢٠

٦٨() البلاغة عند السكاكي، د.أحمد مطلوب، مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٩٦٤ : ١٢–١٣.

٦٩() مقدمة تحقيقه لعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: ٣.

بالتصريح بها، ولا الإشارة إليها))[٧٠] ويزيد هذا المنهج توسيعاً وإيضاحاً في "الإيضاح" فيقول: ((وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه "مفتاح العلوم" وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني –رحمه الله– في كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما، فاستخرجت زبدة ذلك كله، وهذبتها ورتبتها حتى استقر كل شيء منها في محله، وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكري، ولم أجده لغيري، فجاء بحمد الله جامعاً لأشتات هذا العلم))[٧١] فعمل القزويني هذا يضج بالحيوية، ويزخر بالتحقيق، ويتطلع إلى جمع أشتات من هذا العلم بقيت خارج دفتي المفتاح والدلائل والأسرار، والهدف استكمال البناء الذي وضع أسسه، ورفع قواعده السكاكي، واستمد مادته وكثيراً من أفكاره من تراث ممتد في دراسات الإعجاز، والأدب ونقده، وأفكار منقولة من المنطق اليوناني، ولعل أفضل وصف لعمل السكاكي هو ما جاء على لسان أحد الرواد في نقد البلاغة وعلومها، بل الثائرين عليها، في سياق عرض تراثها: ((بعد ذلك جاء العلامة المحقق أبو يعقوب يوسف السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ فاستخلص جملة أحكام البلاغة التي تهدّى إليها من تقدمه من الباحثين، وضم كل جنس إلى جنسه، وجمع كل شكل إلى شكله، وجعل ينظم ما تهيأ له من ذلك في قواعد واضحة الرسوم، مضبوطة الحدود، حتى تكون جامعة مانعة، على اصطلاح جمهرة العلماء، وساق لكل قاعدة ما اجتمع له من الأمثلة والشواهد، ولا ينبغي أن نظن أن السكاكي في مجهوده هذا إنما كان صائغاً فحسب، بل إنه كثيراً ما يكون لاجتهاده في توجيه الأحكام، وفي جوهر المادة العلمية الأثر البعيد.))[٧٢] ولم تجمد البلاغة على هذه الصياغة الدقيقة للسكاكي، كم يتوهم الكثيرون، فلم يقتصر القزويني على تلخيص المفتاح، كما رأينا، ولم يكن عمل كثير من شراحهما اجتراراً للمفتاح والتلخيص، بل استمروا في التحقيق، وجدّوا في البحث، وكلام السبكي (ت٧٧٣هـ) وهو واحد من أوائل الشراح، يدل على المساحة الواسعة التي كان يتم فيها البحث، والكم الهائل من المصنفات التي رجع إليها لإتمام شرحه، فضلاً عن إعمال الفكر، وبذل الجهد في الاجتهاد، يقول: ((ولقد احتوى هذا الشرح –بحمد الله تعالى– من المباحث التي هي من بنات فكري، فلم أسبق إليها...فإني استخرجته بالفكرة، وعدلته بتزكيتَي العقل والنقل...واعلم أنني لم أضع هذا الشرح حتى استعنت عليه بنحو من ثلاثمائة تصنيف، وأنه تضمن الخلاصة من مائة تصنيف في هذا العلم...وإني

٧٠() التلخيص في علوم البلاغة بشرح البرقوقي: ٢٣.

٧١() الإيضاح: ٩.

٧٢() ثورة على علوم البلاغة، عبد العزيز البشري (ت١٩٤٣م) مجلة الهلال، يناير ١٩٣٦: ٢٧٠-٢٧١.

اختصرت فيه أكثر من خمسين مصنفاً في علم البلاغة، وقفت عليها...))[٧٣] وللباحث المنصف أن يتصور مدى الظلم فيما يردده الدارسون المعاصرون من ((أن البحث البلاغي قد انتكس منذ بداية القرن السابع الهجري على يد أبي يعقوب السكاكي، فلم تعرف الفترة الزمنية التي فصلت بين عمل عبد القاهر وعمل السكاكي، عملاً بلاغياً له نضجه، ومكانته، وعمقه، كالذي وجدناه في "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"))[٧٤] لقد حملوا السكاكي وزر قرن ونصف قبل تأليف "المفتاح" فضلاً عن قرون تلته إلى يوم الناس هذا.

انتقادات موضوعية

ما ذكرناه آنفاً يتعلق بمنهج السكاكي وأسلوبه المتأثرَين بالمنطق، ولم تقف المآخذ عند هذا الحد بل امتدت لتشمل جوانب موضوعية في عمله، وصفها كثير من الناقدين بالدقة والإحكام، في التصنيف والتبويب والتقسيم، وأنه أعطى للبلاغة الصيغة النهائية التي عكف عليها العلماء من بعده، وصاغ مباحثها صياغة مضبوطة محكمة، قلما تجد فيها عوجاً أو أمتاً أو انحرافاً، فتحولت البلاغة على يديه إلى علم بأدق المعاني لكلمة علم[٧٥] ((ولاشك أن النظرية الدقيقة، والتبويب العلمي لازمان لأي علم –ما دام علماً– ومن ثم فإنهما كانا حريين أن يحسبا للسكاكي، لا أن يحسبا عليه!))[٧٦] ولكن حملة الهجوم على السكاكي وبلاغته جانبت الإنصاف في النقد، إذ حاولت طمس كل مزاياه، بل جعلتها عيوباً، وندع الدفاع عن المنحى العلمي للبلاغة لرجل لا يتهم في نزوعه إلى الحداثة والتجديد، يقول: ((وأعتقد أن هذا الهجوم كان ظالماً؛ لأنه شرف للبلاغة أن تكون علماً، من أن تكون بحوثاً مبعثرة، لا تلتزم بخطة أو منهج يضبط حركتها، فلا نتصور أن تعاب دراسة ما بأنها أخذت ثوباً علمياً منظماً، بل الأوفق أن تكون العلمية صفة مدح لا ذم، وهو ما تصبو إليه أي دراسة قديمة أو جديدة.))[٧٧]

٧٣() عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: ٣٠.

٧٤() المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني–نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري، د.أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٩٠م. وهو ترديد لكلام الدكتور علي عشري زايد في "البلاغة العربية تاريخها.مصادرها مناهجها":١٤٠.

٧٥() ينظر: البلاغة تطور وتاريخ: ٢٨٨. وعلم البيان، د.عتيق: ٣١.

٧٦() البلاغة العربية...: ١٤٥.

٧٧() البلاغة العربية قراءة أخرى، د.محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط٢، ٢٠٠٧: ٢.

الإنجاز الأهم الذي قدمه السكاكي للبلاغة العربية هو جمعه لأشتاتها في مصنف واحد، وتقسيمها إلى علومها الثلاثة، مع وضع حد لكل علم وتعيين مباحثه وتحديدها وتبويبها، وهو إنجاز عرفه له سلف أهل البلاغة وأنكره خلفهم، وأول ما أنكروه عليه القاعدة التي أقام على أساسها بناء النظرية، وهي تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة، ولعل أول المنكرين الشيخ أحمد مصطفى المراغي، الذي قال عنه: ((...ولا نرى لهذا التقسيم وجهاً صحيحاً، ولا مستنداً من رواية ولا دراية، فليس هناك جهة للتمايز تفصل كل علم عن قسيميه، ولا في أغراض كل علم، ولا في موضوعه ما يجعله وحدة مستقلة عن العلمين الآخرين، في بحوثه ومسائله...فلا يمكن فصل بعضها من بعض، وإن أمكن فعلى نحو آخر غير ما ذكره السكاكي...))[٧٨] ويظهر أن فكرة إنكار هذا التقسيم لم تخطر بباله حين ألف كتاب "علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع" إذ أثنى ثمة على عمل السكاكي وخص تقسيمه وتبويبه بالثناء، فقال عن المفتاح: ((وجمع في القسم الثالث منه زبدة ما كتبه الأئمة قبله في هذه الفنون، ونظم لآلئها المتفرقة في تضاعيف كتبهم، ...ورتبها أحسن ترتيب، ، وبوبها خير تبويب، وفصل فنون البيان الثلاثة بعضها من بعض...ولولا أن المؤلف أولع بتطبيق أساليب العرب على علوم اليونان، واصطلاحاتهم، مع ما بينهما من بعد الدار...لكان خير كتاب أخرج للناس في هذه الفنون، لجمعه شتاتها، وضمه ما تفرق من قواعدها))[٧٩] وفي بيان منهجه في تأليف الكتاب ذكر أنه جمع بين طريق المتقدمين، من سعة الشرح والبيان،...وطريق المتأخرين من حسن الترتيب والتبويب، وطريق المتأخرين هو الذي نهجه لهم السكاكي، وعلى طريقهم سار في تبويب الكتاب، ولا ضير أن يغير عالم أو باحث رأيه، وفي حالة الأستاذ المراغي نجد أن ذلك محتمل جداً للفارق الزمني الطويل بين الكتابين، فهو يقارب ثلاثة عقود أو أربعة، والصورة التي انتهت إليها البلاغة على يد السكاكي ليس لها حصانة من النقد، ويجوز عليها كما جاز على غيرها التغيير والتطوير، والبلاغة بخاصة علم قال عنه القدماء أنه لم ينضج ولم يحترق[٨٠]، وما حكم به القدماء سارٍ إلى زماننا، وما يأتي به الدارسون في القديم والحديث أيضاً لا يحتاج إلى مستند من رواية، ولم يطالب بهذا المستند الروائي أحد قبل الأستاذ المراغي لتصحيح اجتهاد علمي، وما كان له أن يفند عمل السكاكي، وما أجراه من تبويب وتقسيم، لأن أبا هلال العسكري،

٧٨() تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها: ١١١.

٧٩() علوم البلاغة..، دار القلم، بيروت : ١١ ذكر في نهاية الكتاب تاريخ الفراغ من تأليفه ١٣٣٤هـ.

٨٠() قول نسبه بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤هـ) لبعض المشايخ في كتابه: "المنثور في القواعد الفقهية" طبعة وزارة الأوقاف الكويتية، ط٢، ١٩٨٥م: ٧٢/١.

والخفاجي، والجرجاني، والزمخشري، وابن المعتز لم يفعلوا ذلك، أو أن يردَّ فصل هذه العلوم والمباحث عن بعضها لمجرد أنها كانت مختلطة متداخلة عند السابقين.[٨١]

وفي الوجه الثالث من تفنيده قال: ((إن عبد الله بن المعتز، وقدامة بن جعفر، وصاحب الصناعتين، وابن رشيق في العمدة، أدخلوا في البديع مباحث البيان، فجعلوا من البديع: الاستعارة والمجاز والكناية والتعريف، وكذا عبد القاهر في أسرار البلاغة...))[٨٢] وأي فضيلة في هذا الخلط بين فنون متغايرة؟! وقد ذكرنا أن ما كتبه هؤلاء الأعلام كان في الأدب والنقد، وفي اتجاه كان يعد فنون الشعر بديعاً، وهو اتجاه واكب ظاهرة البديع المستحدثة عند طائفة من الشعراء في عصر الجاحظ وابن المعتز، واستمر قروناً بعد ذلك، وهذه الفنون الشعرية كانت تضم جل فنون البيان والبديع، أو كلها، ومن الأمور الجلية أن مباحث البلاغة لم تكن عند السابقين سوى أدوات وظفوها في خدمة حقول معرفية أخرى كالأدب والنقد والتفسير، وإعجاز القرآن الكريم، وأن يكون السكاكي أول من جمع تراث البلاغة المشتت، في كيان علمي وضع قواعده، ورفع بنيانه، ورسم حدوده ورسومه، فذلك مجد علمي خلد اسم السكاكي في تاريخ البلاغة، وجعل منه علماً من أعلامها.

انتقل المراغي إلى نقد التقسيم وتفنيده من حيث الدراية[٨٣]، ومن وجوه سنقف عندها، قال في الوجه الأول: ((إن الثمرة المستفادة من علم المعاني، وهي معرفة أحوال اللفظ العربي التي بها...تستفاد أيضاً من علم البيان والبديع، لأنا لا نعبر باستعارة ولا كناية إلا إذا اقتضاها المقام)) وهنا وقفتان: الأولى أنه عدل عن تعريف السكاكي إلى تعريف القزويني، وتعريف السكاكي أخص بعلم المعاني؛ لأنه قال: ((علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان...))[٨٤] وخواص التراكيب خاصة بعلم المعاني، وهي تتعلق بالإفادة والدلالة، فالتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير وغيرها من مباحث علم المعاني يترتب عليها تغيير في الدلالة، وليس كذلك في فنون علم البيان والبديع، ففي قوله تعالى: {وأنّا لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً} الجن:١٠ استعمل فعل الإرادة مبنياً للمجهول مع الشر وللمعلوم مع الخير، والفرق الدلالي

٨١() ينظر: تاريخ علوم البلاغة: ١١٣–١١٥. قال: ((وها نحن أولاء نبدأ بتفنيد هذا التقسيم، وبيان خطئه، فنقول: أما إن الرواية لا تساعده فلوجوه)) وذكر أربعة وجوه تدور كلها حول أن القدماء لم يقسموا علوم البلاغة ومباحثها.

٨٢() م.ن: ١١٥.

٨٣() ينظر: المصدر نفسه: ١١٥–١١٩.

٨٤() مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧: ١٦١.

أن الخير نسب إلى الله عز وجل، والشر لم ينسب إليه، أما الإجابة عن تعريف القزويني، فعلم المعاني يبحث في أحوال اللفظ، وتعدد المعاني التي يؤديها، في حين يبحث علم البيان في أحوال المعنى الذي يُؤدَّى بألفاظ متعددة، بتشبيه أو استعارة أو كناية، ولذلك قال في تعريف علم البيان: ((هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، في وضوح الدلالة عليه))[٨٥] فموضوع البحث في علم المعاني هو اللفظ، وما ينتج عنه من اختلاف المعنى، وموضوع البحث في علم البيان هو المعنى، والصور اللفظية المتعددة التي تؤديه، وما ينتج عن ذلك من تفاوت في درجة وضوح الدلالة، أما اقتضاء المقام للجميع فصحيح؛ لأن مطابقة مقتضى الحال حد للبلاغة كلها وليس لأحد علومها دون الآخرَين، وما يجدر ذكره هنا أن كثيرين تابعوا الشيخ المراغي في نقد تقسيم البلاغة إلى المعاني والبيان، ووقفوا عند تعريفه للعلمين ليبرهنوا على خطأ التقسيم، نذكر منهم الدكتور بدوي طبانة الذي ذكر التعريف وشرْحه، ورأى أنه يشمل الدراسات البيانية من غير تفريق بين مباحث المعاني والبيان ((فإن "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره" من عمل البياني...ولا فرق في ذلك بين مباحث المعاني، كما حصرها، ومباحث البيان، كما حصرها أيضاً، فللأساليب الخبرية دلالتها، وللأساليب الإنشائية دلالتها، ولكل من التقديم والتأخير دلالته المعنوية، كما أن لأساليب التشبيه والاستعارة والكناية –وغيرها من موضوعات البيان– دلالتها أيضاً... وليس ذلك مقصوراً على أساليب علم المعاني دون غيرها من فنون البيان والبديع...))[٨٦] رأى السكاكي أن تتبع خواص تراكيب الكلام خاص بمباحث علم المعاني، إذ موضوعها التراكيب الخبرية والإنشائية، بصورها وأنواعها المختلفة، لمعرفة خصائصها الدلالية والجمالية، وهي التي توصف بأنها أساليب، ولا تدخل في هذا التعريف فنون البيان والبديع، لأن موضوع هذه الفنون ألفاظ مفردة وليس تراكيب، فالتشبيه يدور حول لفظ المشبه، وبه تتعلق أغراض التشبيه، كبيان أو تقرير حاله، أو المبالغة في تزيينه أو تقبيحه...والاستعارة تقوم على استعارة اسم المستعار منه في التصريحية أو صفة من صفاته في المكنية، وهي علاقة استبدالية بين لفظ ولفظ قائمة على التشبيه، وهي في الكناية جوارية أو ترادفية قائمة على التلازم بين اللازم والملزوم، أما فنون البديع فهي ألفاظ كذلك تقوم على مفارقات لفظية تعطي للكلام جرساً صوتياً مؤثراً، أو مفارقات معنوية تحدث متعة ودهشة، وتسميتها بالمحسنات من باب تغليب الصفة الغالبة أو

٨٥() الإيضاح في علوم البلاغة: ١٨٧.

٨٦() البيان العربي: ٣٤١.

المخصصة، أو الفصل في الاصطلاح المنطقي، وهذه المباحث البيانية والبديعية هي فنون، كما عبر عنها الدكتور طبانة، وتجوَّز في تسميتها أساليب حين ذكرها في سياق الأساليب الخبرية والإنشائية، ولا ضير أن تكون صفتا الإفادة والاستحسان أعراضاً مشتركة بين هذه العلوم الثلاثة بعد أن تميز موضوع كل منها، ((والاحتراز عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره)) هو عام –كما قال الدكتور– في جميع الفنون البيانية، ولذلك ذيل به السكاكي حد علم البيان ((فهو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان، "ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"))[٨٧] وأعاد ذلك في خاتمة القسم الثالث من الكتاب وهو قسم المعاني والبيان، فقال: ((وإذ قد تحققت أن علم المعاني والبيان هو "معرفة خواص تراكيب الكلام"، و"معرفة صياغات المعاني" ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها...))[٨٨].

وفي الوجه الثاني يعود إلى مشروعية الرواية فيسأل: ((فمن أين أتى السكاكي بهذا التفاوت...وإنا لنعلم أن من كان قبله ليس بأقل منه رسوخاً في نقد الكلام؟!)) وهو اعتراض غريب يلغي الإبداع والابتكار في العلوم والفنون بفعل ما يحصل فيها من تطور وتراكم معرفي.

وفي الوجه الثالث يستدل على عدم تمايز مباحث العلوم الثلاثة بدخول المجاز العقلي في علم البيان عند البعض، وفي علم المعاني عند غيرهم، ولا يقدح هذا في حد العلمين وتمايزهما، فلهذا المجاز اعتباران يدخل بأحدهما في علم المعاني، لكونه من أحكام الإسناد، وبالثاني يندرج تحت عنوان المجاز العام، فيكون من مباحث علم البيان.

وفي الوجه الرابع رأى التعويل على تقسيم الجرجاني في الدلائل، حيث قال إن الكلام الفصيح ينقسم إلى قسمين: قسم تُعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يُعزى ذلك فيه إلى النظم، والأول يشمل المجاز والكناية، والثاني أحكام النظم، وهي مباحث علم المعاني، ومؤدَّى التقسيمين واحد، غير أن تقسيم السكاكي أوضح حداً، وأجمع لمباحث العلمين، فالجرجاني جعل الاستعارة والكناية من جملة النظم في موضع آخر، ولم يعين المباحث التي تنضوي تحت كل قسم، وهل ينطبق ما قاله عن الاستعارة على التشبيه أيضاً؟ وهل يناقش تقسيم الشيخ عبد القاهر أيضاً من حيث الرواية والدراية؟! أما

٨٧() المفتاح: ١٦٢.

٨٨() المفتاح: ٤٣٢.

تسميته لعلم فصاحة النظم بعلم "معاني النحو" فوهم وقع فيه كثيرون، لأن معاني النحو مصطلحات تعارف عليها أهل النحو ولا علاقة لها بالبلاغة ولا علم المعاني الذي يبحث في معاني الكلام وليس معاني النحو.

وما قاله في الوجه الخامس مكمل لما سبقه، وهو ترديد لكلام الأستاذ إبراهيم مصطفى (ت١٩٦٢م) وبألفاظه، يقول: ((إن الذي لفت نظر السكاكي إلى تسمية العلم الأول (علم المعاني) أن عبد القاهر أخذ يبدي ويعيد، ويقول: ليست أسرار النظم إلا معاني النحو فاختزل هذا الاسم، وسماه (علم المعاني))[٨٩] وهذا غير صحيح ألبتة، فإذا كان السكاكي أخذ هذا العنوان من أحد فهو ابن فارس من باب معاني الكلام في كتابه الصاحبي في فقه اللغة؛ فعلم المعاني هو علم معاني الكلام، لا معاني النحو، والفرق بينهما كبير.

حين أعاد الدكتور عبد الحميد هنداوي نشر كتاب المفتاح[٩٠] وضع انتقادات الشيخ المراغي في صدر الكتاب تحت عنوان: "السكاكي وتقسيمه الثلاثي لعلوم البلاغة" وبعد أن سردها بنصها، عقب عليها بقوله: ((ونحن نوافق الشيخ المراغي في ذلك تمام الموافقة؛ إذ لا ضرورة لذلك التقسيم الذي استحدثه السكاكي، وتكلف لتطبيقه أيما تكلف، مخالفاً بذلك أئمة البلاغة والفصاحة والبيان الذين لم يفرقوا في كلامهم بين تلك الألفاظ، وهذا ما يقرره عبد القاهر- غير مفرق بين تلك المصطلحات (البلاغة، والفصاحة، والبيان)- حينما يقول: ((فصل تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة، وكل ما شاكل ذلك...فعبد القاهر لم يرد البتة بهذه النظرية أن تكون أساساً لتقسيم علوم البلاغة تلك القسمة المنطقية الصارمة، وإلا -لو أراد ذلك- لفعله هو بنفسه، ومثل عبد القاهر لا تنقصه الإمكانات التي تمكنه من إنفاذ ذلك التقسيم-لو أراده-!على نحو أفضل من تقسيم السكاكي))[٩١] وبغض النظر عن موافقته غير المدروسة، وغير الموفقة، فإن تعليقه واستدلاله بكلام الشيخ عبد القاهر يثير ملاحظة تنطبق على كثير من منتقدي بلاغة السكاكي، وهي اعتبار الشيخ عبد القاهر معياراً للصواب والخطأ، ليس فيما فعله وحسب، بل فيما تركه ولم يفعله أيضاً! فما تركه لا ينبغي لأحد فعله، وهذا هو الجمود بعينه الذي اتهموا به البلاغيين الذين جاؤوا بعد السكاكي، مع أن

٨٩() ينظر: إحياء النحو: ٢٦-٢٧.

٩٠() نشرة دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

٩١() م.ن: ٢٥-٢٦.

أولئك عقبوا على السكاكي واستدركوا عليه، وهؤلاء يريدون إيقاف البلاغة عند الشيخ عبد القاهر، بإحاطته بهذه الهالة من التقديس، كي لا يتجاوزه أو يستدرك عليه أحد، فإذا لم يفرق الجرجاني بين البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة، فلا ينبغي لأحد أن يفرق بينها، وإذا لم يضع حداً ولا رسماً ولم يعرف مصطلحاً، فليس لأحد بعده أن يفعل ذلك، وهذا ما يؤكده دارس آخر حين يتساءل: ((فماذا يجني العلم من الجفاف في الحد، أو الغلظة في الرسم، أو الصرامة في القاعدة؟! لهذا وأمثاله لم نجد عبد القاهر مهتماً بإعطائنا أية حدود بلاغية تخص التعريف في أي مجال))[٩٢] ويصف الحدود والتعريفات بأنها مربكة وفارغة! إن هذه الآراء القاتمة عن السكاكي التي تسير في اتجاه معاكس للواقع التاريخي والواقع المعاصر، تشير إلى وجود ما يمكن أن نسميه بعقدة السكاكي أو عقدة المنطق الذي بنى السكاكي البلاغة على قواعده، لدى بعض الدارسين المعاصرين، وإن المنطق ليغيب بالفعل عن هذه الآراء، فتصور دقة الحدود، ووضوح الدلالة في المصطلحات، والتصنيف العلمي للمباحث جموداً وجفافاً وانتكاساً، في حين يعد اختلاط مفاهيم المصطلحات، ومباحث علوم البلاغة، فلا تنماز البلاغة عن الفصاحة، والبيان عن البديع والبراعة، ولا تعرف مباحث البيان من مباحث البديع، ولا حدود علم المعاني التي تحيط بمباحثها، يعد كل ذلك ازدهاراً ونضجاً وارتقاء بالبلاغة إلى حد الكمال، لا لشيء سوى أن الأول ينسب للسكاكي، والثاني لعبد القاهر الجرجاني.

طرح الدكتور هنداوي تساؤلاً وصفه بالوجاهة، وافترض أنه يمكن أن يدور في ذهن القارئ للانتقادات الموجهة لبلاغة السكاكي، وهذا التساؤل يدور حول البديل الذي يعرض البلاغة في صورة أفضل، ما دام عرض ((السكاكي كالمجمع على رفضه والاعتراض عليه بين الباحثين)) وإذ لم يجد من تصدى لهذه المهمة تجشمها هو وقدم أطروحته البديلة وخطته الجديدة التي حاولت ((الحفاظ –ما أمكن– على ذلك الموروث البلاغي العظيم...)) وقدم لها بعشرة مآخذ على تقسيم السكاكي، الأول والثاني منها يتعلقان بالكلمة المفردة من حيث عدمُ الاهتمام بها، أو عزلها عن السياق، والدارس للبلاغة يعرف أنها اهتمت بالمفردات بالقدر الذي يتسع له مجال البحث البلاغي، فالسكاكي ذكر شيئاً من ذلك عند تعريف الفصاحة بعد الانتهاء من المعاني والبيان، ثم نقلها القزويني إلى مقدمة التلخيص والإيضاح ووسع البحث فيها، وهي تدخل في بعض مباحث علم المعاني وعلم البديع، ومكان التفصيل في دراسة المفردات هو علم الصرف واللغة.

٩٢() أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، د. محمد حسين علي الصغير: ١٨.

والمأخذ الثالث هو قصر المطابقة على رعاية حال المخاطب دون رعاية حال المتكلم، ويفهم هذا من شرح "مقتضى الحال" في حد البلاغة عند القزويني، و((تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره)) في حد علم المعاني في المفتاح، وكأن الحال يراد بها حال المخاطب، غير أن تراث البلاغة فيه ما يشير إلى مراعاة حال المتكلم، وقد ذكر ذلك الدكتور محمد أبو موسى في استدراك له أهميته، فقال: ((وهناك ضروب من التوكيد لا ينظر فيها إلى حال المخاطب، وإنما ينظر فيها المتكلم إلى حال نفسه، ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها، وتقريرها في النفوس، كما أحسها مقررة أكيدة في نفسه، وهذا اللون كثير جداً، وله مذاقات حسنة))[٩٣] ووضح هذا وأكده بأمثلة عديدة من الشعر، عقب عليها بقوله: ((هذا وما شابهه كثير مما لا يلتفت فيه الشاعر إلا إلى حال نفسه...)) وقال أيضاً: ((ثم إنه في كتاب الله كثير جداً، وفيه يبلغ الغاية في النفاذ والتأثير، ومما يتصل بهذا ما يذكر الزمخشري في قوله تعالى: {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم} البقرة ١٤)) وأضاف أن ابن جني قد سبق ((بإشارة نافذة في هذا الباب، فذكر أن التوكيد قد يكون مرجعه إلى اهتمام المتكلم بالمعنى، وأنه مستعظم له، وأنه يريد أن ينقله إلى سامعه كما يجده في نفسه))[٩٤] وهذا ما أخذه الدكتور حسن طبل أيضاً على النقاد والبلاغيين، وفصل فيه القول بشواهد من القرآن الكريم والشعر أخذها من خصائص التراكيب للدكتور أبي موسى[٩٥] فهذه المسألة –إذن–مطروحة في تراث البلاغة العربية وحاضرها، وذِكرُ القزويني لملكة المتكلم البلاغية التي ترفده بالكلام البليغ المطابق لمقتضى الحال تشير إلى دور هذه الملكة في قدرة المتكلم على الإتيان بكلام بليغ، فالذي يأتي بالكلام مطابقاً لمقتضى الحال إنما هو المتكلم، ولو فصل في بيان هذه الملكة وأثرها في الكلام البليغ لسد هذه الثغرة التي تؤخذ على البلاغة العربية، وبخاصة عند من يقارنون بينها وبين الأسلوب ونظرياته الحديثة، ولو كلف الدارسون المعاصرون أنفسهم بإضافة هذه الفوائد في مواضعها من المباحث البلاغية، وفي الكتب التعليمية بخاصة، لكان أجدى من النقد.

والمأخذ الرابع، ((تكرار المباحث، وتشتيت بحث الظاهرة الواحدة في أكثر من موضع، فمثلاً: الحذف يأتي في حذف المسند إليه، وفي حذف المسند...وكذلك الذكر...إلخ)) وهذا مأخذ أو رأي قال

٩٣() خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، ط٧: ٩١.

٩٤() م.ن: ٩٤.

٩٥() علم المعاني في الموروث البلاغي تأصيل وتقييم، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط٢، ٢٠٠٤م، ينظر: ١٥، ٥٧–٦١. ولم أطلع على الطبعة الأولى للكتاب للمقارنة الزمنية بينه وبين تحقيق الهنداوي للمفتاح الصادر بطبعته الأولي سنة ٢٠٠٠م.

به عدد من الباحثين المعاصرين، وطبقه بعضهم في مؤلفات معروفة، لعل أولها كتاب "دروس البلاغة" في أواخر القرن التاسع عشر[٩٦] وكتاب علوم البلاغة للشيخ أحمد مصطفى المراغي، والبلاغة العالية في علم المعاني للشيخ عبد المتعال الصعيدي، والتكرار واقع في هذا الترتيب كذلك، لأن الحذف والذكر مثلاً سيذكر مرة في المسند ومرة في المسند إليه، وفي المتعلقات أيضاً، ولا ضير في العدول عنه إلى التقسيم الذي اعتمده الأساتذة المذكورون، ولا مسوّغ أن يقال بأن تقسيم السكاكي نتج عنه ((أن مزقت البلاغة شر ممزق! فكان الحذف في عدة مواضع، والذكر في أبواب متفرقة؛ لأنهما درسا في المسند إليه مرة، وفي المسند تارة، وفي متعلقات الفعل تارة ثالثة...))[٩٧] فدلالات الحذف والذكر ومقتضياتهما في كل موضع أو باب تختلف عن المواضع الأخرى، فضلاً عن اختلافها في الموضع الواحد بحسب السياق، ولو وازنا بين تقسيم السكاكي، والتقسيمات التي خالفته، لوجدنا أن التكرار فيها ليس أقل من التكرار عند السكاكي، ويبقى تقسيم السكاكي أقرب إلى الموضوعية والمنطق، لأنه مبني على عناصر التركيب، وهي أصول، وما يعرض لها من أحكام كالحذف والذكر، هي عوارض تطرأ عليها، فتكون تابعة لها، والتبويب يكون للأصول الثابتة لا للعوارض الطارئة.

بعد أن عرض الدكتور هنداوي جوانب القصور في منهج السكاكي، قدم تصوراً بديلاً للدرس البلاغي، قسمه إلى مبحثين: مبحث الكلمة المفردة، وكيفية مطابقتها لمقتضى الحال، صوتياً، وصرفياً، ومعجمياً، وأبدى عدم قناعته لما يعرضه البلاغيون عن الكلمة المفردة في مبحث الفصاحة، لاقتضابها، وتناولها بمعزل عن السياق، ولا نستطيع الحكم على جدوى هذا المبحث بالشكل الذي عرضه قبل أن نجد إجراءه في تطبيق عملي، والمبحث الثاني لدراسة التراكيب، وعرض فيه مباحث علم المعاني، ولم يجد غضاضة في توسيع هذا المبحث ليشمل مباحث علم البيان من تشبيه ومجاز وكناية، وأضاف إليها فنون البديع التي ذكر بعضها، فهذه المباحث مجتمعة –في نظره– هي أساليب فنية متنوعة لا ضرورة لفصلها عن دراسة التراكيب، فعل ذلك كله ليتحاشى ((عدم المنطقية في ذلك التقسيم السكاكي الثلاثي لعلوم البلاغة))! ولا ندري أين المنطقية في الجمع بين تراكيب الخبر والإنشاء ودلالاتها الحقيقية والمجازية، وبين الصور الفنية الناتجة عن التشبيه والاستعارة والكناية، واللطائف

٩٦() ألفه الأستاذ حفني ناصف (ت١٣٣٨هـ) وثلاثة آخرون، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠١٢، وهو من الكتب التعليمية المدرسية الميسرة والموجزة، من طبعاته الأولى طبعة بولاق بمصر سنة ١٣١٧هـ ١٨٩٩م انقسمت فيه أبواب علم المعاني بناء على الأحوال العارضة لطرفي الإسناد، كالتقديم والتأخير والحذف والذكر، وليس عناصر التركيب من المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل.

٩٧() أساليب بلاغية، د.أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١: ١٣٣.

والمفارقات اللفظية والمعنوية في الجناس والسجع، أو الطباق والتورية من فنون البديع، وفي مبحث واحد، بلا فصل أو تفريق بينها!. وأين بقيت تهمة المنطقية المفرطة الصارمة التي أصبحت علامة فارقة لبلاغة السكاكي!؟.

وللدكتور حسن طبل بحث مفيد في موضوع الفصل بين علوم البلاغة تاريخياً، رأى فيه أن لهذا الفصل جذوراً عميقة في تاريخ البلاغة، وأن مقولة المعاصرين بأن هذا التقسيم كان على يد السكاكي ارتكزت على ظاهرتين في البلاغة العربية إلى نهاية القرن الخامس، هما: اختلاط مباحثها، وعدم تميزها، وغياب المصطلحات الدالة على الأقسام الثلاثة، وهو يرى أن جذور الفصل تعود إلى أن علماء الإعجاز فصلوا بين النظم، وهو طريقة تأليف الكلام، الذي عدّوه وجهاً للإعجاز، وبين مظاهر البلاغة وفنونها الأخرى التي لا يقع بها الإعجاز، وهي التي أطلقوا عليها "البديع" ويتضح ذلك عند الجاحظ، وهو أول من درس ظاهرة البديع، وعدّها من خصائص العربية، ولكنه حين تصدى لبحث الإعجاز تبنى النظم بوصفه الجهة التي يناط بها الإعجاز، وتجلّت هذه الفكرة أكثر عند الباقلاني الذي ذكر في فصل طويل أكثر مظاهر البديع وفنونه المعروفة في عصره، ثم صرح بأنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن عن طريقها[٩٨]، ويرى الدكتور طبل أن ((الإلحاح على ربط الإعجاز بالنظم أو التأليف لدى هؤلاء المتكلمين كان–فيما نعتقد– بمثابة الجذر النظري لاستقلال علم المعاني))[٩٩] عن البديع، وهذا الاستقلال والفصل ملحوظان عند دارسي الإعجاز ودارسي البديع على حد سواء، فلا نكاد نجد هذين المسارين يلتقيان، فضلاً عن أن يمتزجا، في تاريخ البلاغة؛ ولعل وراء ذلك حرص الطرفين على إبقاء مسافة فاصلة بين القرآن والشعر، وكأنّ إدخال البديع الذي اتخذ معياراً للتفاضل بين الشعراء، إلى مجال الدراسات القرآنية، يزيل هذه المسافة، ويطرح قضية الموازنة والمفاضلة بين القرآن والشعر، وهي قضية ذات حساسية معروفة.

وفي خطوة تالية، أراد الدكتور طبل أن ينسب للباقلاني فصل مباحث علم البيان عن علم البديع، إذ نسب إليه تقسيم ظواهر البديع إلى قسمين: قسم يمكن "تعلمه وتلخيصه" ومنه فنون السجع والتجنيس والمطابقة، وهذا القسم لا يتعلق به الإعجاز، وقسم آخر يصح تعلق الإعجاز به، لما يقع فيه من تفاوت يبلغ حد الإعجاز، ومن هذا القسم الاستعارة، والتشبيه، والإيجاز، وحسن البيان، قال الدكتور

٩٨() ينظر: حول الإعجاز البلاغي للقرآن– قضايا ومباحث، مكتبة جزيرة الورد بالمنصورة، (د.ت): ٧١–٧٦.

٩٩() المصدر نفسه.

حسن طَبَل: ((إن هذا التقسيم الذي حدد الباقلاني مبدأه في نهاية القرن الرابع الهجري تقريباً كان –فيما نظن– هو نقطة البداية في طريق الفصل بين حقلي علم البيان وعلم البديع))[١٠٠] أراد الدكتور حسن أن يبين أن السكاكي لم يكن مبتدعاً للتقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة، غير أن تقسيمه الثاني للبديع إلى علمي البيان والبديع لم يكن بوضوح تقسيمه الأول الذي فرق فيه بين النظم والبديع، وبالرجوع إلى الباقلاني في "إعجاز القرآن" نجد أن ظنه لم يكن دقيقاً، فقد رأينا أنه ذكر في الفصل السابع من الكتاب وتحت عنوان: "في ذكر البديع من الكلام" أكثر من عشرين نوعاً من البديع اشتملت مع فنون البديع على الاستعارة والتشبيه والكناية، وهي مباحث علم البيان، وعقب عليها بقوله: ((وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس كذلك عندنا؛ لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل بالتدريب والتعود والتصنع لها))[١٠١] فلم يفرق بين هذه المباحث، وأكد مرة أخرى على ((أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادَّعوه في الشعر، ووصفوه فيه))[١٠٢] وفي فصل آخر أشار إليه الدكتور ذكر فيه الباقلاني أقسام البلاغة العشرة عند الرماني، وبعد أن وضحها وذكر شواهد عليها، ذكّر بمذهبه الذي بينه سابقاً في شأن وجوه البلاغة التي تسمى البديع، وعدم إفادتها الدلالة على الإعجاز، وذكر ((أنّ هذه الأمور تنقسم: فمنها ما يمكن الوقوع عليه، والتعمل له، ويدرك بالتعلم، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به، وأما ما لا سبيل إليه بالتعلم والتعمل من البلاغات، فذلك هو الذي يدل على إعجازه))[١٠٣] وهذا الذي دعا الدكتور إلى ما قاله من تقسيم فنون البديع إلى قسمين، بيان يقع به الإعجاز، وبديع لا يقع به الإعجاز، إذ فهم "الأمور" التي تنقسم بأنها فنون البديع، وسياق الكلام والأمثلة التي ذكرها لا تدل على ذلك، وأولها التشبيه الذي تعرف به البلاغة –في نظره– ولكن لا يحصل فيه الإعجاز، ومثله التجنيس والمطابقة، من غير تفريق بين هذه الثلاثة، ولكنه ذكر وجهاً يتعلق به الإعجاز وهو البيان، وهو عنده: ((لا يختص بجنس من المبيّن دون جنس، ولذلك قال: {هذا بيان للناس} وقال: {تبياناً لكل شيء}...فالقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه، من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته...وبحسب ما يترتب في نظمه،

١٠٠() م.ن: ٨١.

١٠١() إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: سيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٩٧: ١٠٧.

١٠٢() م.ن: ١١١.

١٠٣() م.ن: ٢٧٥.

ويتنزل في موقعه...))[١٠٤] وظاهر أن البيان هنا عام لا يختص باستعارة ولا كناية ولا تشبيه، وكأنه يقصد به النظم الذي ذكره أكثر من مرة في سياق الشرح والتوضيح، ويتفق هذا مع مذهبه في انفراد النظم في تفسير الإعجاز.

ويرى الدكتور حسن أيضاً أن تفرقة الشيخ عبد القاهر بين النظم واللفظ امتداد للتفرقة بين النظم والبديع عند الباقلاني، وترسيخ للفكرة نفسها، ويؤكد ذلك –في نظره– ((أن الفنون البلاغية التي تنضوي تحت مصطلح "البديع" في نظر هؤلاء تندرج كلها بشكل أو بآخر–كما سنرى– تحت مصطلح اللفظ عند عبد القاهر))[١٠٥] لكن كلام عبد القاهر صريح فيما يقصده باللفظ، إذ يقول في سياق تقسيمه الكلام إلى قسمين ((قسم تُعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم، فالقسم الأول: "الكناية" و "الاستعارة" و "التمثيل الكائن على حد الاستعارة" وكل ما كان فيه على الجملة، مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر))[١٠٦] وهذه إشارة واضحة للتفريق بين مباحث علم المعاني المنبثقة من النظم ومباحث علم البيان التي سماها وقال بأن ((صور المعاني لا تتغير بنقلها من لفظ إلى لفظ حتى يكون هناك اتساع ومجاز...فأما إذا تغيّر النظم فلابدّ حينئذ من أن يتغير المعنى))[١٠٧] وأسند المزية في فنون البيان إلى اللفظ، لأن الألفاظ هي التي تتغير مع بقاء أصل المعنى، بخلاف النظم الذي يحدث تغييره المزية في الكلام بحسب مقتضيات الحال، مع بقاء الألفاظ نفسها، وعلى هذا الأساس فرق السكاكي بين علمي المعاني والبيان، وكان بقاء فنون البديع خارج حدود علمي المعاني والبيان إيذاناً بجمعها وتصنيفها، وحدث هذا على مرحلتين: في المرحلة الأولى جمعها السكاكي وصنفها في قسمين، من غير أن يجعلها علماً مستقلاً، بل اكتفى بوصفها بأنها ((وجوه مخصوصة، كثيراً ما يُصار إليها لقصد تحسين الكلام،...وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ...))[١٠٨] وفي المرحلة الثانية جعلها القزويني علماً ثالثاً، وعرَّفه بقوله: ((وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة، ووضوح الدلالة))[١٠٩].

١٠٤() م.ن: ٢٧٦–٢٧٧.

١٠٥() حول الإعجاز البلاغي للقرآن: ٨٢.

١٠٦() دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة، ط٣، ١٩٩٢م : ٤٢٩–٤٣٠.

١٠٧() م.ن: ٢٦٥.

١٠٨() مفتاح العلوم: ٥٣٢.

١٠٩() التلخيص بشرح البرقوقي: ٣٤٧.

فيما تقدم ما يثبت أن السكاكي لم يكن مبتدعاً في تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة، فقد سبقته إشارات، بل محاولات دلت على أن البحث البلاغي كان يتجه نحو هذا التقسيم الذي تم على يد السكاكي، وفيه رد على قول الشيخ المراغي بأن هذا التقسيم ليس له سابقة قبل السكاكي، وليس له وجه صحيح، ولا مستند من رواية ولا دراية، ولا نرى وجهاً صحيحاً لما يرتبه المعاصرون على هذا التقسيم من آثار سلبية كالجمود والجفاف الذي أصاب البحث البلاغي في العصور التالية، فهذه الآثار لم تكن مقصورة على الدراسات البلاغية، مما يدل على أن علوم البلاغة كانت جزءاً من حالة عامة تكمن أسبابها في طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية والحضارية في تلك الحقب من التاريخ.

قائمة المصادر والمراجع

١. إحياء النحو، إبراهيم مصطفى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،١٩٥٩م.
٢. أدب الكاتب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ط٤، ١٩٦٣.
٣. أساليب بلاغية، د.أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١
٤. أسرار البلاغة' تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط١، ١٩٩١.
٥. أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، د. محمد حسين علي الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦
٦. إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٩٧.
٧. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٤.
٨. الأمالي الشجرية، لابن الشجري هبة الله بن علي العلوي (ت٥٤٢هـ) دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
٩. البديع، ابن المعتز، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٠.
١٠. البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥ط٦
١١. البلاغة العالية، علم المعاني، مراجعة وتقديم: د.عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، ط٢، ١٩٩١.
١٢. البلاغة العربية تاريخها. مصادرها. مناهجها، د. علي عشري زايد، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٢.
١٣. البلاغة عند السكاكي، د.أحمد مطلوب، مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٩٦٤
١٤. البلاغة العربية قراءة أخرى، د.محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط٢، ٢٠٠٧
١٥. البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٩٨٨
١٦. البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، د. بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦، ١٩٧٦.
١٧. تاريخ الإصلاح في الأزهر وصفحات من الجهاد في الإصلاح، عبد المتعال الصعيدي، مطبعة الاعتماد بمصر، ط١، ١٩٤٣.

١٨. تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، أحمد مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٩٥٠.
١٩. التلخيص في علوم البلاغة ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٣٢.
٢٠. ثورة على علوم البلاغة، عبد العزيز البشري (ت١٩٤٣م) مجلة الهلال، يناير ١٩٣٦
٢١. حول الإعجاز البلاغي للقرآن–قضايا ومباحث، د.حسن طَبَل، مكتبة جزيرة الورد بالمنصورة، د.ت.
٢٢. خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، ط٧
٢٣. دروس البلاغة، حفني ناصف وآخرون، بعناية: أحمد السنوسي أحمد، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠١٢.
٢٤. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة، ط٣، ١٩٩٢.
٢٥. الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، ١٩٦٣.
٢٦. عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، د.أحمد أحمد بدوي، مكتبة مصر، القاهرة، (د.ت).
٢٧. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
٢٨. علم البديع، د. عبد العزيز عتيق دار النهضة العربية، بيروت،
٢٩. علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت١٩٧٤
٣٠. علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.
٣١. علم المعاني في الموروث البلاغي تأصيل وتقييم، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط٢، ٢٠٠٤م.
٣٢. علوم البلاغة البيان المعاني البديع، أحمد مصطفى المراغي، دار القلم، بيروت.
٣٣. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٩٨١م.
٣٤. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٥. المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني–نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري، د.أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٩٠م.

٣٦. المستصفى، الإمام أبو حامد الغزالي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٣.
٣٧. مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.
٣٨. مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.
٣٩. مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبدالله محمد الدرويش، دار البلخي ومكتبة الهداية، دمشق، ط١، ٢٠٠٤.
٤٠. مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، دار المعرفة، ط١، ١٩٦١.
٤١. "المنثور في القواعد الفقهية" بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤هـ) طبعة وزارة الأوقاف الكويتية، ط٢، ١٩٨٥م.
٤٢. نقد النثر، قدامة بن جعفر، تحقيق: عبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.
٤٣. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت والمكتب الثقافي القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.